روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتيرا التحرير
محمود قاسم
مؤمن حسين

●

ثمن النسخة

عنوان البريد الإلكترونى :
darhilal@idsc. gov . eg

الاصدار الأول
يناير ١٩٤٩

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج. م. ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت: السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص. ب. ٢١٨٣٣ (13079) ت: ٥٣٤١٢٢٦٤

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس :
Telex 92703 hilal u n

فاكس :
FAX 3625469

مذكرات

محكوم عليه بالإعدام

للكاتب الأشهر

ڤيكتور هيجو

ترجمة

لطفى سلطان

الطبعة الأولى فبراير ١٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال

Amly

صدر هذا الكتاب بالاشتراك مع المركز الفرنسي للثقافة والتعاون (قسم الترجمة) التابع لسفارة فرنسا بالقاهرة

مقدمة

بقلم فيكتور هيجو

لم يظهر فى مقدمة الطبعات الاولى من هذا الكتاب ، الذى نشر اول مانشر دون ذكر اسم مؤلفه ، سوى السطور القليلة التالية :

« هناك وسيلتان نحس عن طريقهما بوجود هذا الكتاب،او ان شئت فقل : كانت هناك فى الواقع رزمة من الاوراق الصفراء غير المنتظمة ، سجل عليها آخر ماجال بذهن انسان بائس من افكار ، ورقة بعد ورقة ، او انه كان هناك رجل مفكر ، شغلته ملاحظة الطبيعة فى سبيل الفن ، رجل فيلسوف أو شاعر ــ لست أدرى ــ كانت هذه الفكرة نزوة من نزواته سيطر عليها ، او بالأحرى سيطرت هى عليه ، ولم يستطع التخلص منها الا بتدوينها فى كتاب .. وعلى القارىء ان يختار من بين هذين التفسيرين مايروق له »

ويستطيع القارىء أن يلاحظ ان المؤلف لم يجد من المناسب ان يفصح عن فكره عندما نشر هذا الكتاب ، وانما آثر ان ينتظر

حتى تفهم فكرته ويتلمس صداها لدى الجمهور . ومالبثت الايام ان حققت ماكان يتوق الى معرفته ، اذ فهم الجمهور فكرته التى ضمنها هذا الكتاب . ويستطيع المؤلف اليوم ان يكشف النقاب عن الفكرة السياسية والاجتماعية التى اراد ان يروّج لها فى هذا القالب الأدبى الساذج البرىء ، فهو يعترف اذن ، او بالاحرى هو يعلن بصوت مدو وعلى رءوس الاشهاد ، ان كتاب « آخر ايام محكوم عليه بالاعدام » ليس الا دفاعا مباشرا ـ او غير مباشر ان شئت ـ عن الغاء عقوبة الاعدام

ان ماكان يقصد اليه الكاتب بمؤلفه هذا ، وماكان يريد ان تتبينه الاجيال المقبلة ، اذا هى عنيت بامره ، ليس الدفاع الخاص عن مجرم بعينه أو عن متهم يتخيره الكاتب ، فمثل هذا الدفاع الخاص أمره ميسور دائما وهو يتغير تبعا للظروف ؛ بل هو فى حقيقة امره مرافعة عامة وابدية عن المتهمين جميعا ، فى الحاضر وفى المستقبل . انه حجر الزاوية فى الحق الانسانى الذى يبسطه الكاتب ويدافع عنه بأعلى صوته أمام المجتمع الذى يعد محكمة النقض الكبرى ، مستهدفا حماية حقه فى الاستئناف الذى غالبا مايرفض فى قضايا الاجرام !

انها مشكلة كئيبة مظلمة تنبض فى غير وضوح خلف جميع القضايا الكبرى ، وتختفى وراء ستار كثيف من الكلام الرنان ، ومن البلاغة الدامية التى يحيطها بها رجال الملك (أى رجال القضاء) . نعم ، اننى أقول انها مسألة « الحياة والموت » عارية ومجردة من كل رسميات النيابة العمومية وشكليات

الاتهام الرنانة ، ومعروضة بشكل بارز فى وضح النهار ، فى المكان الذى يجب أن تراها فيه ، مكانها الواقعى على الطبيعة ، وفى بيئتها الشنيعة المروعة ، لا عند القاضى فى المحكمة ، ولكن على المقصلة .. عند الجلاد !

ذلك هدف الشاعر الذى رمى اليه من تاليف هذا الكتاب .

فان كلل المستقبل هامته ذات يوم بالمجد ـ وهو مالايجسر على ان يامله ـ فسوف يغنيه هذا عن كل شىء آخر

يعلن المؤلف اذن ويكرر القول باسم جميع المتهمين ، سواء كانوا أبرياء أو مذنبين ، امام جميع المحاكم وسائر ممثلى الاتهام والمحلفين : ان هذا الكتاب موجه الى كل من يصدر حكما . ولكى يتسع مجال الدفاع حتى يشمل القضية برمتها ويغطى كل نواحيها ، فقد اضطر الكاتب لكتابة مؤلفه « آخر ايام محكوم عليه بالاعدام » ، او « مذكرات محكوم عليه بالاعدام » على هذه الصورة ، وان يحذف من موضوعه ومن اجزائه جميعا الحادث نفسه والدافع اليه ، والظروف الخاصة والشخصية ، وكل ماله صلة بالحادث ، واسم المذنب ، مكتفيا بالدفاع عن قضية شخص ما، محكوم عليه بالاعدام ، ونفذ فيه الحكم لجريمة ما فى أى يوم من الايام

وسوف يكون من دواعى سعادة المؤلف لو انه استطاع ـ دون أن يستعين بشىء آخر غير تفكيره ـ أن يتعمق فى موضوعه كل التعمق كى يجعل قلبا تنزف منه الدماء تحت بصر رجال القضاء ، ولو انه تمكن من ان يبعث الرحمة فى قلوب

اولئك الذين يحسبون انهم عدول ، وسوف يكون من دواعى سروره لو انه استطاع بتعمقه فى نفسية القاضى ان ينجح احيانا فى ان يجد فيه انسانا !

وعندما نشر هذا الكتاب منذ ثلاث سنوات ، تخيل بعض الناس أن من واجبهم ان يعلنوا على الملأ أن فكرته ليست فكرة المؤلف ، فقال فريق منهم انه قد اخذها عن كتاب انجليزى ، وذهب فريق آخر الى انه قد اقتبسها عن كتاب امريكى ، وتلك لعمرى سنة مرذولة تدفعنا الى البحث عن أصول الاشياء بعيدا جدا ، على مسيرة آلاف الاميال ، وتجعل النهير الذى يغسل ماؤه شارعك ياتى من منابع النيل !

ومما يدعو للاسف أن أصل هذا الكتاب ليس انجليزيا ولا امريكيا ولا صينيا ، فالمؤلف لم يأخذ فكرته من كتاب ما ، فهو لم يألف أن يذهب باحثا عن أفكاره بعيدا كل هذا البعد ، وانما اخذها من حيث تستطيعون جميعكم ان تأخذوها او من حيث يحتمل ان تكونوا قد لمستموها بالفعل (اذ من منا لم يحلم ، او يفكر ، فيما بينه وبين نفسه ، فى آخر يوم فى حياة شخص محكوم عليه بالاعدام ؟) .. من الشارع ، بكل بساطة ، او من الميدان العام ، او من ساحة الاعدام . انه التقط هذه الفكرة الكئيبة وهو يمر من هناك ذات يوم .. التقطها وهى ملقاة على الارض فى بركة من الدماء ، تحت سلاح المقصلة الاحمر الرهيب !

وكلما كان يذاع حكم بالاعدام فى باريس ، تبعا لقضاة محكمة النقض فى ايام الخميس الكئيبة ، كانت هذه الفكرة الاليمة تعود الى المؤلف وتستولى على نفسه ، فى كل مرة كان يسمع فيها تلك الصيحات المبحوحة التى تجمع المتفرجين وتؤلبهم حول ساحة الاعدام ، وهى تمر من تحت نوافذ بيته . نعم ، كانت هذه الفكرة تلح عليه فتملأ راسه بما فيها من جنود البوليس والجلادين والجماهير ، وتنقل الى مشاعره الآلام الاخيرة التى يقاسيها البائس المحتضر ساعة بساعة ، فتقول له : انهم فى هذه اللحظة يجعلونه يعترف أمام القسيس .. وفى هذه اللحظة ، يقصون له شعره .. وفى هذه اللحظة ، يوثقون يديه !

وكانت هذه الافكار ترغم المؤلف المسكين — وهو شاعر مرهف الحس رقيق الشعور — على ان يقول كل ذلك للمجتمع الذى تشغله شئونه المعتادة ، فى الوقت الذى تتم فيه هذه العملية البشعة ، وكان هذا الخاطر يطارده ويهز عواطفه ، وينتزع وحى الشعر من اعماق نفسه ان كان يعالج كتابته ويقتل ابياته على لسانه وهى بعد لم تر النور ! نعم ، كانت هذه الفكرة تحاصره وتلح عليه ، وتملأ راسه ونفسه فتعطل كل اعماله ، وتعترض سبيله فى كل شىء . وكان الامر بالنسبة اليه عذابا اليما يبدا مع مطلع النهار ، ثم يستمر بعد ذلك مع عذاب المذنب البائس الذى كان يمتد حتى الساعة الرابعة صباحا . وعندئذ فقط ، وبعد ان يتنفس الفجر ، كان فى

وسع المؤلف ان يتنفس وان يجد فى نفسه شيئا من الحرية !

واخيرا ، شرع المؤلف ذات يوم فى كتابة هذا الكتاب ، وكان ذلك ـ على ما يعتقد ـ فى اليوم التالى لاعدام « دولباخ » ، فخف عنه كربه منذ ذلك الحين ، واصبح ضميره يوحى اليه انه ليس متضامنا مع العدالة فى كل مرة ترتكب فيها احدى هذه الجرائم العامة التى يسمونها تنفيذ حكم الاعدام ، ولم يعد يحس على جبينه بقطرة الدماء التى تسقط من ساحة الاعدام على راس كل فرد من افراد المجتمع

ومع ذلك فان هذا كله ليس كافيا ، فالتبرؤ من الجريمة شىء حسن ، ولكن الافضل منه منع اراقة الدماء . ولهذا ، فلن يعرف المؤلف هدفا اسمى ولا اسلم ولا انبل من هذا الهدف ، الا وهو الاسهام فى الغاء عقوبة الاعدام ، ومن ثم فانه يضم تمنياته وجهوده بكل قواه ، الى جهود الرجال الكرماء فى كل الامم ، الذين يعملون جاهدين منذ عدة اعوام من اجل اسقاط المقصلة ، وهى الشىء الوحيد الذى لاتجتثه الثورات . وسوف يسر المؤلف ان ياتى بدوره ، وهو الرجل الضعيف ، ليضرب ضربته معاونا فى هدم آلة الاعدام التى تسلط منذ قرون عديدة على رءوس الناس

٢

لقد ذكرنا منذ لحظة ان المقصلة هى البناء الوحيد الذى لاتقوضه الثورات ، والواقع انه يندر أن تبخل الثورات بدم البشر ، فهى تأتى لتغير وتعدل من نظم المجتمع واوضاعه ، ومن ثم تكون عقوبة الاعدام من الامور التى لاتتنازل عنها الا بصعوبة بالغة

ولكننا سوف نعترف مع ذلك بأنه اذا كانت هناك ثورة قد بدت لنا مجيدة ، وتستطيع حقا ان تلغى عقوبة الاعدام ، فان هذه الثورة هى ثورة يوليو ، اذ يبدو لنا فى الواقع انه من واجب أكثر الحركات الشعبية تسامحا فى العصر الحديث ان تلغى هذه العقوبة البربرية التى انشاها لويس الحادى عشر وريشليو وروبسبير (١) ، وان تنص فى القانون على عدم جواز اهدار حياة الانسان . نعم ، ان ثورة يوليو عام ١٨٣٠ كانت جديرة بتحطيم مقصلة عهد الارهاب التى كانت قائمة منذ عام ١٧٩٣

لقد رجونا ذلك لحظة ، ففى شهر اغسطس من عام ١٨٣٠ ، كان فى وسع المرء ان يستنشق فى الجو كثيرا من الشفقة والكرم ، وكانت ترفرف فوق الجماهير روح جميلة من الرقة والمدنية ، وكنا نشعر بأن قلوبنا تتفتح وهى تحس باقتراب مستقبل باسم ، حتى بدا لنا ان عقوبة الاعدام قد ألغيت بالفعل دفعة واحدة باتفاق عرفى عام ، شأنها شأن غيرها من الامور التى كانت قد ضايقتنا اشد المضايقة !

---

(١) ريشيليو احد الوزراء الفرنسيين قبل الثورة . أما روبسبير فهو ارهابى من رجال الثورة الفرنسية

ان الشعب كان قد تخلص من آثار العهد البائد فى فرح غامر ، والمقصلة اثر دام من هذه الآثار ، وقد حسبنا أننا تخلصنا منها وانها حرقت مع ما حرق ، وظللنا لعدة أسابيع نثق بالمستقبل فى سذاجة ، مؤمنين بأنه لا يمكن الاعتداء على الحياة كما لا يمكن الاعتداء على الحرية

والواقع انه ما كاد ينقضى شهران حتى بذلت محاولة تهدف الى تحقيق الامنية المثالية العظمى ، التى طالما تمناها « سيزار بونيزانا » ، الا وهى الغاء عقوبة الاعدام وجعلها حقيقة قانونية ، غير ان هذه المحاولة كانت تفتقر ، للأسف، الى المهارة والحذق ، بل انها كانت خبيثة تقريبا ، فقد تمت بقصد خدمة مصلحة اخرى غير المصلحة العامة

اننا نتذكر انه فى شهر اكتوبر من عام ١٨٣٠ ، بعد ان استبعد البرلمان اقتراح دفن نابليون تحت تمثال العامود بعدة ايام ، اخذ ممثلو الأمة جميعا يبكون وينتحبون ، وطرحت مسألة الحكم بالاعدام على بساط البحث ، وسوف نذكر بعد بضعة اسطر فى اية مناسبة طرح هذا الموضوع للبحث ، فبدا عندئذ ان قلوب هؤلاء المشرعين جميعا قد امتلأت فجأة بشفقة عجيبة ، حتى انهم كانوا يتزاحمون على الكلام ، وعلى العويل والنحيب ورفع ايديهم نحو السماء ! .. الحكم بالاعدام ! .. يا اله السموات والارض ! .. يا له من شيء بشع شنيع !

نعم .. هكذا كانوا يقولون ، ومنهم هذا النائب العام الشيخ الذى ابيض شعره وهو يرتدى « الروب » الاحمر ، والذى سلخ كل حياته وهو يأكل الخبز مغموسا فى دم الاتهامات ، فقد لبس من فوره مسوح العطف والشفقة ، واشهد الآلهة على انه يمقت المقصلة . ولم يخل المنبر لمدة يومين كاملين من خطب تفيض بالبكاء والنحيب حتى بدا الأمر وكأنه « محزنة » ندب فيها النادبون ، ورددوا فاصلا من التراتيل الحزينة مع « تخت » كبير ، كبير جدا ، بمصاحبة المجموعة « الكورس » المكونة من كل هؤلاء الخطباء الذين يشغلون الصفوف الاولى من المجلس النيابى ، والذين يرسلون انغاما جميلة للغاية فى الايام المجيدة . لقد غنى كل منهم على طريقته ولم يكن هناك نقص فى اى شيء . وكان الامر يثير العاطفة ويحرك الشفقة الى اقصى حد ، خاصة وان جلسة الليل كانت أبوية رحيمة ، تتقطع لها نياط القلوب ، تماما كما تتقطع لدى رؤية الفصل الخامس من مسرحية « لاشوسيه » ، وكانت الدموع تترقرق فى اعين الجمهور الطيب القلب الذى كان لا يفهم شيئا من كل ذلك

فعلام كانت تدور مناقشتهم عندئذ ؟ الغاء عقوبة الاعدام ؟

نعم .. ولا !

وهذا هو الواقع :

ان اربعة رجال من المجتمع الراقى ، اربعة رجال ذوى مراكز مرموقة من صنف هؤلاء الرجال الذين نصادفهم فى صالونات الطبقة العليا ، والذين قد نتبادل معهم بضع كلمات

مؤدبة ، اقول ان أربعة من هؤلاء الرجال كانوا قد حاولوا ، فى الدوائر السياسية العليا ، احدى هذه الضربات الجريئة التى يسميها « بيكون » جرائم ، ويطلق عليها « ماكيافيللى » اسم « مشاريع » ولكن القانون فى قسوته على الجميع يعاقب على هذه الجرائم او المشاريع بالاعدام . وكان هؤلاء الرجال الاربعة سجناء واسرى فى قبضة القانون يحرسهم ثلثمائة جندى فى سجن « فانسين » .. فما العمل وكيف العمل ؟..

لاشك فى انكم تفهمون انه يستحيل ان يرسل الى ساحةالاعدام اربعة رجال مثلى ومثلك .. اربعة رجال من الطبقة الراقية لا يمكن أن يساقوا الى ساحة الاعدام فى عربة « كارو » وهم مقيدون بالحبال الغليظة فى بشاعة ، وظهر كل واحد منهم الى ظهر الآخر ، ومعهم هذا الموظف الذى يجب الا يذكر اسمه قط ! .. آه لو كانت هناك مقصلة من خشب ثمين !

آه !.. ليست هناك اذن وسيلة لانقاذ رءوسهم الا بالغاء عقوبة الاعدام !

وهنا تحرك البرلمان وبدا فى العمل !؟

ارجو ان تلاحظوا أيها السادة أنكم حتى الامس القريب كنتم تنعتون هذا الالغاء بانه مجرد نظرية مثالية خيالية ، وبانه حلم وشعر وجنون . ولاحظوا كذلك ان هذه ليست أول مرة يحاولون فيها لفت نظركم الى العربة « الكارو » ، والى الحبال الغليظة ، والى الآلة الحمراء البشعة ! انه لمن

الغريب حقا أن تسترعى كل هذه الاشياء الرهيبة انتباهكم الآن فجاة على هذا النحو !

صمتا ! فالأمر ليس كما تظنون ! فنحن لا نلغى عقوبة الاعدام من أجلك انت ايها الشعب ، بل من أجلنا نحن النواب الذين قد نصبح وزراء فى يوم من الايام . فنحن لا نريد ان تعض المقصلة الطبقات العليا ، ومن أجل ذلك فاننا نحطمها ، وحسنا نفعل اذا كان عملنا هذا فيه ارضاء للجميع ، غير اننا لم نفكر الا فى انفسنا ونحن نقوم به ! فلنطفىء النار اذن ، ولنلغ الجلاد بسرعة ، ومعه قانون الاعدام

وهكذا ، فان مزيجا من الانانية ينحرف بخير المشروعات الاجتماعية ويفسدها . انه العرق الاسود يجرى فى الرخام الابيض ، ويسير فى كل موضع فيه فيظهر فجاة ، وفى اية لحظة ، تحت « ازميل » النحات . ان تماثيلكم أيها السادة يجب ان يعاد صنعه من جديد

ونحن لا نشعر يقينا باننا فى حاجة الى ان نعلن ذلك هنا ، فلسنا من الذين كانوا يطالبون برءوس الوزراء الاربعة . فبعد القبض على هؤلاء الرجال ذوى الحظ العاثر ، تحول لدينا الغضب والاشمئزاز اللذان كنا نشعر بهما بسبب مؤامرتهم الى شفقة عميقة كما حدث لدى الجميع . لقد انعمنا النظر فى الافكار العتيقة التى تربى عليها بعضهم ، وفى عقل رئيسهم ذى الافق الضيق ، وهو انسان متعصب ومتآمر عنيد ممن اسهموا فى مؤامرات عام ١٨٠٤ ، قد ابيض شعره قبل

الاوان ، وهو فى الظل والرطوبة فى سجون الدولة ، كما فكرنا فى كل الظروف الحتمية التى كانت تحيط بموقفهم المشترك ، وفى استحالة وقف هذا الانحدار السريع الذى كانت الملكية قد دفعت نفسها اليه بأقصى سرعتها فى الثامن من اغسطس عام ١٨٢٩ ، وفكرنا كذلك فى مدى الاثر الذى يحدثه شخص الملك ذاته فى انفسنا ، وهو اثر لم تكن نشعر به الا قليلا جدا حتى ذلك الحين ، وفكرنا خاصة فى العزة والكرامة اللتين كان احدهم يبسطهما على الآخرين فى محنتهم كمعطف ثمين

لقد كنا من الذين كانوا يتمنون لهم مخلصين ان تنقذ حياتهم ، وكنا على اهبة الاستعداد لان نضحى فى هذا السبيل، فلو حدث المستحيل ونصبت لهم المشنقة يوما فى ساحة الاعدام ، فاننا لانشك فى انه سوف تحدث مظاهرات شعبية عنيفة لتهدم هذه المشنقة ، وسوف يكون كاتب هذه السطور مع تلك المظاهرات المقدسة اذ يجب علينا ان نقول كذلك فى صراحة ، انه اذا قورنت كل المشانق فى اوقات الازمات السياسية ، فان المشنقة السياسية تكون ابشعها واكثرها شؤما واوفرها سما واجدرها بالازالة على الاطلاق . ان هذا الضرب من المقصلة تنبت جذوره فى الشارع ، ويترعرع فى وقت وجيز لينتشر فى الارض . ففى وقت الثورة ، خذوا حذركم لاول راس يهوى ، لانه يفتح شهية الشعب

لقد كنا الآن متفقين شخصيا مع الذين كانوا يريدون انقاذ

رءوس الوزراء الاربعة ، كنا متفقين معهم على اية صورة من الصور ، وذلك لأسباب عاطفية واخرى سياسية ، وانما كنا نؤثر فقط ان يتخير البرلمان فرصة غير هذه لاقتراح الغاء عقوبة الاعدام

ولو انهم اقترحوا هذا الالغاء لا بمناسبة سقوط اربعة وزراء من قصر التويلرى (قصر الحكم) الى سجن « فانسين » ، بل من أجل أى مجرم عادى ، من أجل واحد من هؤلاء البائسين الذين لاتدقق النظر اليهم حينما يمرون على مقربة منك فى الطريق ولا تبادلهم الحديث ، وتتجنب الاحتكاك بهم بغريزتك لقذارة ملبسهم ، هؤلاء التعساء الذين كانت طفولتهم جريا فى العراء وهم حفاة فى الوحل عند تقاطع الشوارع ، يرتجفون من البرد شتاء على قارعة الطريق ، ويستدفئون على دخان المطابخ ، مطابخ مطعم « مسيو فيفور » العظيم ، الذى تتناول طعامك فيه ، وهم ينقبون هنا وهناك عن كسرة من الخبز فى وسط القمامة ويمسحونها قبل ان يتبلغوا بها ، ثم ينبشون عن غيرها . وليس لهم من تسلية الا ذلك المنظر المجانى ، منظر عيد الملك ، ومنظر المحكوم عليهم بالموت ، وهم فى ساحة الاعدام ، وهذا المشهد الاخير بالمجان كذلك . يالهم من بائسين مساكين يدفع بهم الجوع الى السرقة ، وهذه تدفع بهم الى الباقى ..! انهم اطفال محرومون فى مجتمع قاس تأخذهم أصلاحيات الاحداث فى سن الثانية عشرة ، والليمان فى الثامنة عشرة ، وتتلقفهم المشنقة فى سن الاربعين . انهم

سيئو الحظ ، وكان فى وسعكم بمدرسة ومصنع أن تجعلوا منهم اناسا طيبين صالحين ، أناسا نافعين ذوى خلق كريم . انهم سيئو الحظ لأنكم لاتدرون ماذا تفعلون بهم الا أن تلقوا بهم كما يلقى المرء بحمل لانفع فيه ، تارة فى ليمان « طولون » واخرى فى مقبرة « كلامار » ، لتسلبوهم الحياة بعد ان تكونوا قد سرقتم الحرية منهم .. فلو انكم اقترحتم الغاء عقــوبة الاعدام من أجل واحد من هؤلاء الرجال ، لكانت جلستكم اذن مجيدة حقا ، وعظيمة وجليلة ومقدسة وجديرة بالتبجيل . فمنذ ان دعا قساوسة « ترانت » العظماء الخــارجين على الكنيســة الى الاجتماع بهم باسم الرحمة الالهيـــة ، اذ كانوا يأملون هدايتهم ، لم نر قط جماعة من الرجال قدمت للعالم ما هو اكثر عظمة ونبلا وشفقة ببنى البشر من هذا المشهد . لقد كان من الواجب دائما على أولئك الذين هم أقوياء وعظماء حقا أن يعنوا بالضعيف ، وأن يهتموا بأمر الصغير . ان جمعية من البراهمة كانت تكون جميلة لو أنها عنيت بأمر الفقير المعدم، وقضية الفقير المعدم هنا ليست الا قضية الشعب . فلو انكم كنتم الغيتم عقوبة الاعدام من أجل الشعب ، دون أن تنتظروا حتى تكون لكم مصلحة فى ذلك ، لاتممتم بهذا ماهو اكثر من العمل السياسى ، ولاتممتم عملا اجتماعيا بمعنى الكلمة

لكنكم لم تنجزوا حتى مجرد عمل سياسى بمحاولتكم الغاء عقوبة الاعدام ، لا التماسا لهذا الالغاء لذاته ، ولكن لانقاذ اربعة وزراء بائسين ضبطوا متلبسين بتهمة التآمر لاحــــداث املاك !

فماذا حدث ؟ انكم قد اثرتم الريب والشكوك ، نظرا لانكم لم تكونوا مخلصين . وعندما رأى الشعب ان الغرض هو خداعه غضب على هذه المسألة برمتها وحدث امر جدير بالملاحظة ، فقد تحمس الشعب لحكم الاعدام مع انه هو الذى يتحمل عبئه كله ! ان افتقاركم الى المهارة هو الذى جعل الامور تسير على هذا النحو ، فانتم قد اسأتم الى هذه المسألة اساءة طويلة الأمد بمعالجتكم اياها على هذا النحو من اللف والدوران وعدم الصراحة . لقد كنتم تمثلون رواية هزلية فصفر النظــارة لكم

ومع ذلك ، فقد اخذت بعض النفوس هذه المهزلة مأخـــذ الجد ، وصدر الامر ، بعد جلسة البرلمان المشهورة مبــاشرة ، من حامل الاختام — وهو رجل شريف — الى رؤساء النيابة بايقاف تنفيذ احكام الاعدام الى اجل غير مسمى . وكان ذلك خطوة كبرى فى الظاهر ، وتنفس أعداء عقوبة الاعدام الصعداء ولكن فرحتهم لم تتم . كانت وهما قصير الأمد

وانتهت محاكمة الوزراء ، ولا أعرف الحكم الذى صـــدر عليهم ، وانقذت رءوسهم الاربعة ، واختير لهم سجن « هام — Ham » كحل وسط بين الموت والحرية . وبعد ان تمت كل هذه الاجراءات ، تلاشى كل أثر للخوف من نفوس القادة من رجال الحكم ، ومع ذهاب الخوف تلاشت كل المشــاعر الانسانية ، ولم يعد أحد منهم يذكر الغاء عقوبة الاعدام ..

ولما لم يعد من مصلحتهم اثارة هذه المسألة ، عاد الخيال خيالا ، وارتدت النظرية الى سيرتها الاولى ، وانقلب الشعر شعرا كما كان من قبل

ومع ذلك ، كان لا يزال هناك فى السجون بعض البائسين من المحكوم عليهم بالاعدام العاديين ، كانوا يتنزهون فى ردهات السجون منذ خمسة اشهر او ستة ، وهم يستنشقون الهواء وقد هدأت أنفسهم منذ اثارة هذه المسألة فى البرلمان ، ووثقوا من انهم سوف يعيشون وقد اعتقدوا ان ايقاف التنفيذ هذا معناه العفو عنهم .. ولكن ، صبرا لحظة !

حقا لقد كان الجلاد خائفا للغاية ، ففى اليوم الذى كان قد سمع فيه المشرعين يتحدثون عن الانسانية وعن حب الغير وعن التقدم ، ظن انه ضائع لا محالة ! وبلغ من تعاسته أنه اختبأ تحت مقصلته وهو لايحس بأدنى سرور او ارتياح تحت شمس شهر يوليو ، كبومة فى وضح النهار ، وهو يحاول جاهدا ان يجعل الناس ينسون أمره ، وكان يسد اذنيه ، ولا يجرؤ على ان يلتقط انفاسه .. لم يعد يراه احد منذ ستة اشهر ، ولم يكن أحد يدرى ما اذا كان ميتا أو لا يزال على قيد الحياة ، ومع ذلك فقد اخذ الرجل يطمئن رويدا رويدا فى ظلماته ، وكان ينصت الى ما كان يدور فى البرلمان فلم يعد يسمعهم ينطقون باسمه ، ولم يعد يسمع تلك الكلمات الرنانة التى كانت قد القت فى قلبه الرعب . لم تعد ثمة تعليقات بليغة عن كيفية

معالجة الجرائم والعقوبات ، فقد كانوا يهتمون باشياء أخرى على شيء من الخطورة فيما يختص بمصلحة المجتمع ، كطريق يصل بين قريتين ، او منح اعانة لممثلى دار الأوبرا ، أو زيادة الميزانية الهزيلة بمقدار مائة الف من الفرنكات !! لم يعد يفكر فيه أحد ، هو : قاطع الرءوس !

وما أن راى الرجل ذلك حتى اطمأن قلبه ، واطل براسه خارج الجحر مقلبا بصره فى جميع الاتجاهات ، ثم خطا الى الامام خطوة أو خطوتين ، كما يفعل أى فأر من فئران الشاعر « لافونتين » ، وبعد ذلك خاطر بأن خرج تماما من مخبئه ، ثم قفز على المقصلة واخذ يعدها ويمسحها ويصلح من شأنها ، ثم لمعها وداعبها وجربها « على الفاضى » وهو يعد نفسه بان يقدم عملا لهذه الآلة القديمة التى علاها الصدأ واتلفتها البطالة !!

وتلفت الجلاد خلفه فجأة ، وامسك باحد هؤلاء المنكودى الحظ كما سمحت له الصدفة فى اول سجن صادفه ، احد هؤلاء الذين كانوا يعولون على الحياة ، أمسك به من شعره وجذبه اليه ، ثم جرده من ملابسه ، وشد وثاقه ، واعدمه .. وهكذا عادت عقوبة الاعدام !

ان هذا كله شيء شنيع .. ولكنه التاريخ !

نعم ، لقد كانت هناك فترة مدتها ستة اشهر اجل فيها تنفيذ عقوبة الاعدام ومنحت لمسجونين تعساء ، ضوعفت لهم العقوبة مجانا على هذا النحو بجعلهم يأملون فى الحياة ويتعلقون

بها ، ثم .. بلا سبب .. ولغير ضرورة ، ولمجرد اللذة الفى وقف تنفيذ أحكام الاعدام ذات صباح ، وقطعت رءوس كل هؤلاء الناس فى برود شـــديد وبطريقة منظمة .. آه ! .. يا الهى ! هل لى ان أسالكم : ما ضرنا نحن جميعا لو عاش هؤلاء الرجال ؟ الا يوجد فى فرنسا هواء يكفى الجميع ؟

ونظرا لان كاتبا صغيرا فى الحكومة كان لايعنيه الامر، نهض من على مقعده ذات يوم ، وهو يقول : « هيا بنا ! .. لم يعد احد يفكر فى الغاء عقوبة الاعدام . لقد حان الوقت لنعود الى قطع الرقاب بالمقصلة ! » لابد ان يكون قد حدث فى قلب هذا الرجل امر وحشى ، امر بالغ الشناعة !

ونرى لزاما علينا ان نقول من ناحية اخرى انه لم تصاحب تنفيذ احكام الاعدام ظروف اكثر بشـاعة قط الا منذ الغاء وقف تنفيذ أحكام الاعدام ، الذى صدر الامر به فى شهر يوليو ــ ولم تكن قصص ما يجرى فى ساحة الاعدام قط أكثر اثـارة للنفوس ، مما يبرهن تماما على مقت الناس لعقوبة الاعدام .. ان ازدياد فزع الناس من هذا الحكم انما هو عقاب عـدل موجه لأولئك الذين أعادوا تطبيق قانون الدم ، فليلقوا جزاء وفاقا على ما صنعوه

ويجب أن نذكر هنا مثلين أو ثلاثة امثال لما حدث فى بعض وقائع الاعدام ، مما ينضح بشاعة وقذارة • يجب علينا أن نرهق أعصاب زوجات وكلاء النيابة ، فالمراة لها أثرها أحيانا فى

فى نهاية شهر ســبتمبر الماضى على وجه التقريب ، وفى اواسط فرنسا ــ ولا يحضرنا تماما المكان ، واليوم ، واسم المحكوم عليه ، ولكننا سوف نعثر على هذا كله اذا حدث أن شك احد أو عارض فى صحة هذه الواقعة ــ ونعتقد ان ذلك حدث فى « باميه » . فقد دخلوا على رجل فى سجنه حيث كان يلعب الورق فى هدوء ، فاعلموه بانه ســوف يموت بعد ساعتين ، فارسل هذا القول رجفة قاسية فى كل اوصاله . ذلك انهم كانوا قد نسوا امره لستة اشهر فلم يعد يفكر فى الموت .. وحلقوا للرجل لحيته ، وقصوا له شعره ، وأوثقوه بالحبال ، وجعلوه يعترف أمام القسيس • ثم اركبوه عربة « كارو » بين أربعة من الجنود ، ومروا به خلال الجمـاهير حتى وصلوا الى مكان التنفيذ

والى هنا ، فالأمر يهون ، اذ أنه يتم على هــذا النحو • ولما بلغ الرجل مكان الآلة الرهيبة تلقاه الجلاد من القسيس ، وحمله وربطه على المقصلة ، ثم جعله يطأطىء رأسه وهوت الـسكين . لقد تحرك المثلث الحديدى الثقيل فى صعوبة ثم هوى وهو يحك فى مجراه ! وهنا بدات البشاعة ، فقد اخذت السكين تحز فى رقبة الرجل دون ان تذبحه ، فصاح صيحة بشعة . وحار الجلاد فى الامر فرفع السكين ثم تركها تهوى من جديد . فعضت رقبة السكين مرة اخرى ولـكنها لم تقطعها • فصرخ المحكوم عليه ، وصاح الجمهور كذلك ، فرفع

الجلاد السكين مرة ثالثةوهو يأمل خيرا فى الضربةالثالثة ولكن .. بلا جدوى !

ان الضربة الثالثة قد فجرت نهرا ثالثا من الدماء اخذ يجرى على رقبة المحكوم عليه ولكنها لم تطح برقبته !

والآن فلنوجز : ان السكين قد رفعت ثم هوت خمس مرات وخمس مرات جرحت المحكوم عليه ، وخمس مرات صرخ الرجل من أثر الضربة ، وهز راسه الحى وهو يطلب الرحمة ! فثار الشعب وأمسك بأحجار ليرجم بها الجلاد التعس ، فهرب الجلاد تحت المقصلة واحتمى خلف خيول الجنود .. ولكن هذه ليست نهاية المأساة ..

ان المحكوم عليه حينما وجد نفسه وحيدا على المقصلة ، اعتدل على اللوحة الخشبية وظل واقفا هناك بمنظره المفزع ، وهو يقطر دما ويسند رأسه نصف المقطوع ، الذى كان يتدلى على كتفه ، وراح يطلب فى صياح مبحوح أن يفكوا وثاقه!

فغمرت الشفقة قلب الجمهور ، وهم بأن يقتحم نطاق الجنود وان يخف لنجدة هذا البائس الذى نفذ فيه حكم الاعدام خمس مرات . وفى تلك اللحظة بالذات ، صعد على المقصلة صبى الجلاد ، وهو شاب فى نحو العشرين من عمره ، وأمر المحكوم عليه بأن يستدير كى يفك وثاقه ، ثم استغل وضع هذا الرجل المشرف على الموت ، الذى كان يسلم نفسه اليه بسلامة نية ، فوثب على ظهره وشرع يقطع له فى صعوبة ما كان قد تبقى من رقبته بسكين جزار !

ان هذا قد حدث ورآه الناس راى العين .. نعم ، رأوه راى العين !

وكان هناك بحسب نص القانون ، قاض يشهد تنفيذ هذا الحكم . وكان يستطيع باشارة منه ان يوقف كل شيء ! فماذا كان يفعل هذا الرجل اذن وهو فى عربته بينما كانوا يمثلون انسانا ؟ ماذا كان يفعل معاقب القتلة هذا فى الوقت الذى كانت عملية اغتيال تجرى فى وضح النهار ، امام عينيه ، وتحت خيول عربته ، وتحت زجاج نافذتها ؟

لم يقدم القاضى للمحاكمة ! ولم يقدم الجلاد للمحاكمة ، ولم تحقق اية محكمة فى هذا الافناء الوحشى لجميع القوانين فى شخص مخلوق مقدس من مخلوقات الله !

□

فى عصر همجية القانون الجنائى فى القرن السابع عشر ، ابان حكم « ريشيليو » وحكم « كريستوف فوكيه » ، حينما اعدم السيد « دى شاليه » امام الناس فى ميدان بمدينة «نانت» على يدى جندى غير ماهر ضربه اربعا وثلاثين ضربة (١) بآلة حادة يستعملها صانع البراميل فى تجميع الخشب ، وذلك بدلا من ان يضربه ضربة واحدة بسيف ، بدا هذا على الاقل أمرا غير مشروع فى نظر برلمان باريس ، فأجرى تحقيقا وأقيمت قضية • ولئن كان ريشيليو لم يعاقب ، ولئن كان

---

(١) يقول لا بورت انها اثنتان وعشرون ضربة ويقول « اوبرى » انها اربع وثلاثون .. وكان مسيو « دى شاليه » يصرخ فى كل مرة حتى الضربة العشرين !

كريستوف فوكيه لم يعاقب ، فان ذلك الجندى قد لقى جزاءه . كان هذا ظلما دون شك ، ولكنه ظلم يكمن العدل وراءه !

أما هنا، فلم يحدث شيء على الاطلاق . لقد وقع هذا الحادث بعد شهر يوليو فى وقت سادت فيه الطباع الرقيقة والتقدم ، وبعد عام واحد من « محزنة » البرلمان المشهورة على عقوبة الاعدام . حسنا ! ان هذا الحادث لم يذكره أحد على الاطلاق ، ونشرته صحف باريس كأنه حكاية عادية ، ولم يحاكم أحد بسببه ولم يوجه الاتهام الى أحد !

كان كل ماعرفوه أن المقصلة قد اتلفت عمدا ، اتلفها شخص كان « يريد أن يضر بمنفذ أحكام القضاء » ، كان هذا الشخص هو احد خدم الجلاد ، وقد دبر هذه المكيدة لينتقم من سيده لانه كان قد طرده من خدمته

لم تكن هذه الا مكيدة خادم ، فلنتابع سرد أمثلتنا اذن :

وفى مدينة « ديجون » ، سيقت امرأة منذ ثلاثة اشهر الى ساحة الاعدام ، (تصوروا .. امرأة !) ، وفى هذه المرة أيضا لم تؤد سكين الدكتور جيوتان (١) عملها كما يجب ، فلم تقطع الراس تماما بحيث ينفصل عن الجسم . وعندئذ ، تعلق مساعدو الجلاد بقدمى المرأة ، وفصلوا رأس البائسة عن جسدها وهى تطلق صرخات مدوية ، بأن انتزعوها انتزاعا

(١) يعنى المقصلة التى عرفت فى فرنسا منذ الثورة الفرنسية بهذا الاسم ، نسبة الى مخترعها الدكتورجيوتان — المترجم

بقوة الشد والجذب

وفى باريس ، نعود الى الوقت الذى كان يجرى فيه تنفيذ عقوبة الاعدام فى السر . فنظرا الى انهم كانوا منذ شهر يوليو لايجرءون على تنفيذ احكام الاعدام فى ساحة الاعدام ، والى انهم كانوا خائفين ، وبما انهم كانوا جبناء ، فان هذا هو ماحدث :

لقد أخذوا اخيرا من سجن « بيستر » رجلا محكوما عليه بالاعدام ، يدعى « ديزاندريو » على ما اعتقد ، ووضعوه فى شيء يجر على عجلتين ، مغلقا من كل نواحيه كسلة ، ومقفلا قفلا محكما بالاقفال والمزاليج ، ثم ساروا به دون جلبة وبلا جمهور يرافقه ، بين جنديين أحدهما أمامه والآخر من خلفه ، ثم القوا بالسلة والرجل الذى فيها فى وسط الحقول خارج باريس ، فيما وراء حى « سان جاك » .. وكانت الساعة الثامنة صباحا فى مطلع النهار عندما وصلوا الى هناك ، وكانت هناك مقصلة « طازجة » لم تستعمل بعد أعدت خصيصا لهذا الرجل ، وكان الذين شهدوا هذا المنظر بضعة غلمان صغار اجتمعوا على كومة أحجار قريبة حول تلك الآلة التى نصبت على غير انتظار .. ثم اخرج الرجل من السلة فى سرعة ، ودون أن تتاح له أية فرصة ليلتقط انفاسه ، ثم قطع راسه خلسة فى صورة تنطوى على الخيانة والعار ! .. وهذا هو ما يسمونه « عملا رسميا وعاما من أعمال العدالة الكبرى» ، فيالها من سخرية دنيئة !

فكيف اذن يفهم رجال الملك كلمة المدنية ؟ وفى اى عصر نعيش ؟ ان العـدالة قد انحطت حتى اضحت حيلا وخططـا فيالشناعة !

ان الشـخص المحكوم عليه بالاعدام اذن شيء مخيف للغاية يخشى المجتمع بأسه ، ويأخذ حذره منه الى هذا الحد وعلى هذا النحو !

ومع ذلك ، فلنكن منصفين ! ذلك أن تنفيذ عقوبة الاعدام لم يكن بطريقة سرية تماما . ففى الصباح ، نادى المنـادون كالمعتاد ، وبيع حكم الاعدام فى شوارع باريـس وميادينها .. ويبدو أن هناك اناسا يعيشون من بيع هذه الاشـياء ، فهل تسمعون ؟ انهم يتخذون من جريمة انسان سيىء الحظ ومن عقابه وعذابه واحتضاره سلعة تباع الورقة منها بدرهم ! فهل فى وسعكم ان تتخيلوا شيئا اكثر قبحا من هذا الدرهم الملطخ بالدم ؟ فمن ذا الذى يلتقطه اذن من بينكم ؟

تلك وقائع كافية ، كافية اكثر مما ينبغى .. اليس هـذا كله شيئا مروعا ؟ فماذا لديكم تستطيعون به ان تؤيدوا عقوبة الاعدام ؟

اننا نلقى عليكم هذا الســؤال بصورة جدية ، نلقيه عليكم كى تجيبونا عنه . اننا نوجهه الى علماء الجريمة لا الى المثقفين الثرثارين ، فنحن نعلم ان هناك من يؤيد عقوبة الاعدام ، لالشيء الا ليخالف بذلك رأى الغير كما يفعل فى كل شيء ، وان هناك آخرين لايحبون عقوبة الاعدام الا لانهم يكرهون زيدا أو عمرا

من يواجهونها ، فهى بالنسبة اليهم مسـالة كلام ... مسالة اشخاص .. مسالة افراد يسمون فلانا وفلانا . هؤلاء هم الحساد ، وكثيرون منهم من المشرعين ومن كبار الفنانين ، ومثلهم مثل « جوزيف جريبا » فى معارضته « لفيلانجييرى » ، وكمثل « توربجيانى » فى نقده « لمايكل انجلو » ، وكمثل «سكوديرى» فى تحديه للكاتب المسرحى « كورنى »

اننا لا نتوجه بالحديث الى هؤلاء الناس ، وانما الى رجال القانون بمعنى الكلمة ، والى المفكرين وذوى المنطق السليم ، الى أولئك الذين يحبون عقوبة الاعدام لانها عقوبة الاعدام ، يحبونها لجمالها وطيبتها وحسنها !

هيا اذن .. فليدلوا بدلوهم ، وليقدموا لنا حججهم

يقول الذين يحاكمون غيرهم ويصدرون عليهم الاحكام ان عقوبة الاعدام امر ضرورى ، اولا : « لان من الضرورى ان نبتر من المجتمع عضوا قد أساء اليه من قبل وقد يسيء اليه بعد ذلك » . فاذا كان الامر مقصورا على ذلك فالسجن المؤبد يكفى . فلماذا الموت اذن ؟ أتفترضون انه يمكن الفرار من السجن ؟ حسنا .. فلتشددوا الحراسة . فان كنتم لاتثقون من متانة القضبان الحديدية ، فكيف تتجرءون على أن تحبسوا وراءها الوحوش الضارية ؟

ليس ثمة مايدعو الى وجود الجلاد مادام السجان يكفى

ولكنهم يستطردون فيقولون : « ان المجتمع يجب ان يثأر لنفسه وأن يعاقب » . « كلا ، لا هذا ولا ذاك ، فالثأر شيء

فردى ، أما العقاب فبيد الله »

والمجتمع بين اثنين : العقاب فوق المجتمع ، والانتقام اقل منه . الاول كبير للغاية ، والثانى صغير للغاية ، وكلاهما لا يلائمه . ومن واجب المجتمع الا « يعاقب لينتقم » ، بل أن « يصْلح ليصل الى ماهو احسن » .. فغيروا اذن صيغة علماء الاجرام على هذا النحو ، فنحن نفهمها ونقبلها على هذا التعديل

يبقى السبب الثالث والاخير ، وهو نظرية ضرب المثل :
« يجب أن يضرب المثل الرادع ! .. يجب الارهاب بمنظر المصير الذى ينتظر المجرمين ، نلقى به الخوف فى قلوب الذين يميلون الى محاكاتهم ! » .. ان هذه العبارة تكاد تكون بالحرف الواحد تلك الجملة الخالدة التى يرددها ممثلو الاتهام فى « النيابات » الخمسمائة الموجودة فى انحاء فرنسا مع تغيير طفيف رنان !

حسنا .. اننا ننكر أولا أن هناك مثلا وعبرة ، ننكر أن منظر التعذيب يأتى بالنتيجة المرجوة منه ، فهو بدلا من أن يهذب الشعب ، يضعف من روحه المعنوية ويقتل لديه كل شعور ، وبالتالى كل فضيلة . والادلة على هذا كثيرة ، يزدحم بها استدلالنا لو أردنا ان نذكرها . ومع ذلك فسوف نسوق واقعة من بين الف واقعة ، ذلك لأنها وقعت حديثا جداً ونحن نكتب ، منذ عشرة ايام فقط ، وهى ترجع على التحديد الى يوم ٥ مارس الماضى ، يوم المهرجان

فقد حدث فى مدينة « سان بول » ، عقب اعدام رجل يدعى « **لويس كامى** » **مباشرة ، وكان قد ارتكب جريمة حريق**، حدث أن جاء نفر من الملثمين ليرقصوا حول المشنقة وهى لاتزال ساخنة ، وكان ذلك فى يوم من أيام الاعياد المسيحية ! .. فاضربوا المثل اذن التماسا للعبرة !

نعم ، نعم .. انكم تستمسكون بنظريتكم الروتينية فى المثل رغم التجربة . فلنعد اذن الى القرن السادس عشر ، وعليكم ان تكونوا مرعبين حقا ! اعيدوا مختلف انواع التعذيب .. اعيدوا الينا « فاريناتشى » والاشخاص الذين كانوا يكلفون رسميا بالتعذيب .. اعيدوا لنا الصلب والحرق وتمزيق الاوصال واقتلاع الاظافر وقطع الاذن ودفن المرء حيا وغلى اعضاء الجسم والمرء حى يعيش !! اعيدوا لنا عند كل ناصية فى شوارع باريس ، منظر الجلاد البشع كأنه حانوت جديد مفتوح كبقية الحوانيت ، ومزود بصفة مستمرة باللحم الآدمى الطازج ! اعيدوا الينا ساحة الاعدام التى كانت مهيأة فى « مونفوكون » بقواعدها الحجرية الست عشرة ، وجلاديها الجالسين و « بدروماتها » المملوءة بالعظام ، والواح التعذيب الخشبية ، و « كلاباتها » ، وسلاسلها ، وخوازيقها ، وغربانها التى تنهش جثثها العفنة ! ! نعم ، أعيدوا ساحة الاعدام هذه مع المشانق الملحقة بها ورائحة الجثث النتنة التى كانت رياح الشمال الغربى تنقلها وتحملها معها على طول حى « التامبل » فى ضواحى باريس ! ! اعيدوا الينا صبى جلاد باريس العظيم فى قوته

وسطوته واستمراره وجبروته ! .. حسنا ! .. هذا هو مثلكم بصورة مكبرة ! ! هذه هى عقوبة الاعدام مفهومة فهما جيدا . انها طريقة للتعذيب على نطاق واسع ، وهذا هو الشيء الشنيع المروع !

* أوه ! افعلوا ما يفعلونه فى انجلترا ففى انجلترا ــ وهى بلاد التجارة ــ يأخذون مهربا الى ساحل « دوفر » حيث يشنقونه ضربا للمثل ، ولضرب المثل ايضا يتركونه معلقا فى حبل المشنقة ! ولكن ، نظرا الى أن تقلبات الجو قد تتلف الجثة ، فانهم يغلفونها فى عناية بقماش مدهون بالقطران ، وذلك حتى لايضطرهم الأمر الى تجديد هذا الغلاف الا أقل عدد ممكن من المرات .. فياله من بلد يتوخى الاقتصاد ! بلد يطلون فيه المشنوقين بالقطران !

ومع هذا ، فان ذلك فيه شيء من المنطق ، فهو اكثر الطرق انسانية لفهم نظرية المثل

ولكن انتم .. اصحيح انكم جادون حقا ، اذ تعتقدون انكم تضربون مثلا حين تقطعون رقبة انسان بائس ، بطريقة تعسة فى ركن قصى مهجور من مشارف العاصمة ؟ قد يكون هذا مقبولا لو انه تم فى ساحة الاعدام ، وفى وضح النهار ! ولكن ، ان يحدث ذلك فى حقول ضاحية من ضواحى باريس .. فى « سان جاك » ؟ .. وفى الثامنة صباحا والنهار لم يكد يطلع بعد ؟ من ذا الذى يمر من هناك ؟ ومن ذا الذى يرى ذلك ؟ ومن ذا الذى يعرف انكم تقتلون رجلا فى ذلك المكان ؟ ومن

ذا الذى يشك فى انكم تضربون مثلا هنالك ؟ مثلا لمن ؟ لاشجار الطريق طبعا !

افلا ترون اذن ان تنفيذكم لحكم الاعدام علنا يتم خلسة ؟ افلا ترون اذن انكم تختبئون ؟ وانكم تخافون وتخجلون من عدالتكم ؟ وانكم تتمتمون على نحو يدعو الى السخرية قائلين ان هذه هى العدالة ؟ انكم فى الواقع خجلون وجلون ايها السادة ، ومزعزعون قلقون ، وغير واثقين من انكم على حق ، وان الشك الذى لدى الجميع قد تسرب الى نفوسكم ، وانكم تقطعون الرؤوس على سبيل « الروتين » ودون أن تعرفوا تماما ما تعملون ! أفلا تشعرون فى قرارة أنفسكم أنكم قد فقدتم على الاقل الشعور الاخلاقى والاجتماعى برسالة الدم التى كان اسلافكم القضاة العتاة يؤدونها بضمير مطمئن للغاية ؟ وفى الليل ؟ افلا تتقلبون على وسائدكم اكثر مما كانوا يتقلبون ؟ ان آخرين من قبلكم قد امروا بتنفيذ العقوبة القصوى ، عقوبة الاعدام ، غير انهم كانوا يعتقدون انهم على حق ، وانهم عدول وانهم يحسنون صنعا . ان « جوفينيل ديزرسان » كان يعتقد انه قاض ، و « ايلى دى توريت » كان يعتقد انه قاض ، و « لو باردومون » و « لاريني » و « لافوماس » كانوا يعتقدون انهم قضاة .. اما انتم .. اما انتم فلستم موقنين تماما فى قرارة انفسكم انكم لستم قتلة !

انكم تتركون ساحة الاعدام الى ضاحية « سان جاك » ، وتفرون من الجمهور الى العزلة ، ومن النهار الى الغسق ،

ولا تقومون بما تقومون به فى ثقة وثبات . ولست أتردد فى أن اقول لكم : انكم تخنيئون !

هذه هى كل الاسباب التى تنتحلونها لعقوبة الاعدام قد تحطمت اذن ، وهذا هو منطق ممثلى الاتهام بأسره قد أصبح عدما، وهذه كل مرافعات النيابة قد فندت فصارت رمادا . ان اقل لمسة من المنطق لابد ان تذيب كل تفكير معوج

انه لاينبغى اذن ان يأتينا رجال الملك بعد الآن يطالبوننا - نحن المحلفين - برءوس جديدة ، نحن الرجال ، وهم يرجوننا فى صوت يداعبنا باسم المجتمع الذى تجب حمايته ، وباسم الثأر للشعب ، أن نضمن لهم ضرب المثل الرادع . ان هذا كله ليس الا بلاغة وكلاما أجوف ، ليس الا مجرد بالون منفوخ تكفى وخزة بسيطة من دبوس ، كى تحيله الى لا شىء ، اذ ليس وراء هذه الثرثرة الحلوة غير قسوة القلب والشراسة والهمجية ، والرغبة فى اظهار التحمس للعمل وضرورة كسب العيش . اصمتوا ايها السادة ، فاننا نحس بمخالب الجلاد تحت انامل القاضى الحريرية !

انه ليشق علينا ان نفكر فى برود فى أمر مدع عام جرىء . انه رجل يكسب عيشه بارسال الآخرين الى المشنقة ، فهو المورد الرسمى لساحات الاعدام ! ومن ناحية اخرى ، فهو رجل يزعم لنفسه الاسلوب الادبى الجميل ، وهو ذلق اللسان ، أو يحسب انه كذلك ، ويردد عند الحاجة بيتا أو بيتين من الشعر اللاتينى قبل ان يسوق انسانا الى الموت ، ويحاول جاهدا أن

يحدث فى مستمعيه التأثير الذى يريده ، وهو شديد العناية بأمر كرامته - يا للشقاء ! هذا فى الوقت الذى تكون فيه حياة الاخرين فى الميزان ! ان لهذا المدعى العام نماذج ، نماذج خاصة يتعذر على المرء ان يبلغ مستواها ، مثل «بلار» ، و«مارشانجى» تماما كما يكون للشعراء نماذج تحتذى مثل « راسين » او « بوالو » . وفى المناقشات التى تدور فى المحكمة ، تراه يجنح دائما الى ناحية المقصلة ، ولا غرو فهى دوره ، وهى شغله الشاغل . والاتهام الذى يوجهه انما هو عمله الادبى الذى يزينه بالاستعارات ، ويعطره بالنصوص ، يستشهد بها كى يظفر باستحسان الحاضرين فى الجلسة ، وينتزع اعجاب السيدات ، ولديه ذخيرة من الافكار الشائعة التى لا تزال جديدة تماما على البيئات الريفية ، وله بلاغته فى التعبير ، واسلوبه الرقيق المصطنع الذى يشبه فى رقته اساليب الكتاب . انه يكره الكلمة الخالية من الاستعارة ، مقتا يدانى المقت الذى يضمره لها شعراؤنا المنتمون الى مدرسة «دوليل» فلا تخشوا اذن ان يسمى الاشياء بأسمائها فذلك لن يحدث ، اذ ان لديه قناعا كاملا من النعوت والصفات لكل فكرة يمكن ان تثيركم وهى مجردة عارية . ان فى وسعه أن يجعل الامر المفزع مقبولا ، ويخفف من حدة سكين المقصلة ، ويوازن الميزان ، ويغلف السلة الحمراء (١) فى غلالة رقيقة من الاستعارات . انه رقيق ومتحفظ ، فهل تتصورونه بالليل فى مكتبه ، وهو يتأنق

(١) اى سلة المقصلة التى يستقر فيها راس المحكوم عليه عند قطعه

في أعداد هذه الخطبة التي ستنصب بسببها المشنقة بعد ستة اسابيع ؟ هل ترونه وهو يعرق دما وماء كي يحاصر راس متهم في اسوا بند من بنود القانون ؟ وهل تبصرونه وهو «ينشر» رقبة انسان بائس بمنشار قانون اسيء صنعه ؟ الم تلاحظوا كيف ينقع ثلاثة نصوص او اربعة سامة في نبض من العبارات البليغة ، كي يعبر بها ، ويستخرج منها بجهد جهيد موت انسان ؟ افلا يحتمل ان يكون الجلاد قاعدا القرفصاء عند قدميه في الظلام ، تحت مكتبه وهو جالس يكتب ، وانه قد يكف عن الكتابة بين آن وآخر ، ليقول له كما يقول السيد لكلبه : « اهدأ اهدأ ، فسوف تنال عظمتك ! »

ومن ناحية اخرى ، فقد يكون رجل الاتهام هذا في حياته الخاصة رجلا شريفا ، وابا عطوفا ، وابنا صالحا ، وزوجا مخلصا ، وصديقا وفيا .. الى غير ذلك مما تذكره العبارات الطيبة المنقوشة على لوحات القبور في مدافن « لاشيز »

فلنأمل اذن ان يأتي اليوم الذي يلغى فيه القانون هذه الوظائف المحزنة ، وجو حضارتنا وحده هو المسئول عن القضاء على عقوبة الاعدام في فترة معينة من الزمن

ويغلب على ظننا في بعض الاحيان أن الذين يدافعون عن عقوبة الاعدام لم يفكروا فيها فيحسنوا التفكير . ولكن ، ضعوا اذن بعض الجرائم في الميزان ، فهذا القانون العنيف يخول للمجتمع الحق في ان يسلب من الانسان شيئا لم يمنحه اياه ، وهذه العقوبة انما هي اكثر العقوبات التي لايمكن اصلاح

نتائجها واشدها استعصاء على الاصلاح !

ذلك ان امامكم امرين لا ثالث لهما :

فاما ان يكون الرجل الذي تقضون على حياته لا اسرة له ولا اهل ولا روابط في هذا العالم ، وفي هذه الحالة لا يكون قد تلقى تربية او تعليما او عناية ما ، بنفسه او بقلبه .. فبأي حق اذن تقتلون هذا اليتيم البائس ؟ اتعاقبونه لانه كان يزحف في طفولته على ارض لاسند له فيها ولا مرشد ولا معين ؟ انكم تعاقبونه اذن على العزلة التي تركتموه يهيم فيها على وجهه ، وتجعلون من مصيبته هذه جريمة ، وهو الذي لم يعلمه احد ماذا كان عليه ان يفعل ! انه رجل جاهل ، والخطأ ليس خطاه ولكنه خطأ القدر .. انكم تعاقبون بريئا !

واما ان هذا الرجل ذو اسرة . فهل تحسبون عندئذ ان الضربة التي تقطعون بها رقبته لا تصيب الا اياه ؟ وان اباه ، وامه ، واولاده لن يقطروا دما كذلك ؟ كلا ، فانتم بقتله انما تقطعون رقبات اسرة باسرها . فانتم هنا كذلك تعاقبون الابرياء !

ان عقوبة الاعدام عقوبة شاذة عمياء ، على اي وجه تقلبها نجدها تصيب البريء !

اسجنوا هذا الرجل ، هذا المذنب الذي له اسرة ، فسوف يستطيع وهو في سجنه ان يتابع العمل من اجل ذويه ، اذ كيف يكون في وسعه ان يعولهم وان يجعلهم يعيشون وهو راقد في قاع قبره ؟ ترى هل تفكرون دون ان تأخذكم الرجفة فيما

سيئول اليه امر هؤلاء الاولاد الصغار ، والبنات الصغيرات الذين تنتزعون منهم والدهم ، اعنى لقمة العيش ! ام هل تعولون على هذه الاسرة لتزودوا بها الليمان بعد خمسة عشر عاما ؟ . . آه ! يا للابرياء المساكين !

عندما يصدر حكم بالاعدام على عبد رقيق فى المستعمرات ، فانهم يدفعون لصاحبه ومالكه تعويضا مقداره الف فرنك ! ماذا ايها السادة ؟ انكم تعوضون خسارة السيد ولا تعوضون الاسرة شيئا ! وهنا ايضا بالله عليكم ، الا تنتزعون رجلا من بين ذويه اصحاب الحق فيه ؟ او ليس هو ملكا لوالده ولزوجته ولابنائه الى حد يبلغ فى القداسة اكبر كثيرا من درجة ملكية السيد لعبده ؟

لقد سبق لنا ايها السادة ان اتهمنا قانونكم هذا بانه اغتيال ، وهانحن اولاء نتهمه الآن بانه سرقة

وثمة شيء آخر : فهل فكرتم فى روح هذا الرجل ؟ وهل تجرءون على ازهاقها بمثل هذه السرعة ، وبمثل هذا الاستخفاف ؟ فيما مضى ، على الاقل ، كان هناك شيء من الايمان فى قلوب الناس ، وفى اللحظة الحاسمة كانت نفحة الدين المنبثة فى الهواء تلين اكثر القلوب قسوة وصلابة ، فكان المحكوم عليه فى نفس الوقت تائبا يكفر عن ذنب قد ارتكبه ، وكان الدين يفتح امامه عالما ، فى نفس اللحظة التى كان المجتمع فيها يغلق فى وجهه عالما آخر . كانت النفوس جميعا تثق بالله ، ولم تكن المشنقة الا حدا من حدود السماء . اما الآن ،

فما هو الامل الذى تضعونه فى مشنقة لا تؤمن بها الغالبية العظمى من الجماهير ؟

ليست هذه من غير شك الا « اسبابا عاطفية » كما يقول بعض الذين يزدرون العاطفة ولا يستمدون منطقهم الا من رءوسهم ، غير انها فى نظرنا هى افضل الاسباب ، ونحن غالبا ما نفضل الاسباب العاطفية على العقلية . ويجب علينا الا ننسى من جهة اخرى ان النوعين يتساندان على الدوام ، فكتاب « قانون الجرائم »(١) مأخوذ من كتاب « روح القوانين » (٢) ، و « مونتسكيو » هو الذى انجب « بيكاريا »

ان المنطق معنا ، والعاطفة معنا ، والتجربة تؤكد وجهة نظرنا كذلك . ففى الدول النموذجية حيث الغيت عقوبة الاعدام ، اخذ مجموع الجرائم الكبرى يقل باطراد عاما بعد عام ، فأدخلوا هذا فى حسابكم

ومع ذلك ، فاننا لا نطالب فى الوقت الحاضر بالغاء عقوبة الاعدام الغاء تاما وبطريقة فجائية على النحو الطائش الذى اتبعه مجلس النواب ، بل نريد ، على العكس ، ان تجرب كل المحاولات ، وان تتخذ كافة الاحتياطات ، وان نلزم فى هذا الحذر كل الحذر . ومن جهة اخرى ، فاننا لانريد الغاء عقوبة الاعدام فحسب ، وانما نريد كذلك تعديلا شاملا لكل انواع العقوبات من اولها الى آخرها ، من الحبس البسيط الى

(١) تاليف « بيكاريا »
(٢) تأليف « مونتسكيو »

المقصلة ، مع ملاحظة ان الزمن يعتبر احد العوامل التى تجب مراعاتها فى عمل كهذا ، حتى يتم على الوجه الاكمل . وفى نيتنا ان نكتب المزيد فى هذا الموضوع شارحين الطرق والافكار التى تبدو فى نظرنا عملية ممكنة التطبيق . ولكن ، اذا استثنينا الغاء حكم الاعدام جزئيا فى حالات تزييف النقد ، والحريق ، والسرقة المصحوبة بظروف مشددة ، الى غير ذلك ، فاننا نطالب منذ الآن ، وفى جميع القضايا الكبيرة ، بأن يلتزم رئيس المحكمة بأن يسأل المحلفين هذا السؤال : هل ارتكب المذنب جريمته بدافع من العاطفة أو بدافع المنفعة ؟ فاذا جاء رد المحلفين بأن « المتهم قد ارتكب ما ارتكب بدافع العاطفة » فيجب الا يصدر عليه حكم بالاعدام .. فهذا كفيل على الاقل بأن يبعد عنا بعض احكام الاعدام التى تثير نفوسنا ، وكان ذلك خليقا بأن ينقذ حياة كل من « أولباخ » و « ديباكير » ، وهو خليق كذلك بأن ينقذ رقبة من يقف موقف « عطيل » (١) othello فى المستقبل

ومن جهة اخرى ، فاننا يجب الا نخدع ، فمسألة عقوبة الإعدام هذه تنضج يوما بعد يوم ، وسوف يحلها المجتمع باسره ، كما نفعل ، قبل انقضاء وقت طويل . فليحذر علماء الجريمة المعاندون ، فقد اخذت احكام الاعدام تتناقص منذ قرن من الزمان ، واخذت تجنح تقريبا نحو شيء من اللين

---

(١) اشارة الى جريمة عطيل فى رواية شكسبير المعروفة عندما قتل زوجته بسبب الغيرة المتأججة

والعمال ، وهذا نذير شيخوخة واضمحلال . انه علامة من علامات الضعف ، علامة موت قريب . لقد انتهى زمن تعذيب المتهمين وربطهم على العجلة ، وولى عصر صلب المحكوم عليهم .. بل ان المقصلة ذاتها عبارة عن تقدم ! .. ان هذا لأمر عجيب ! لقد كان « السيد جيوتان » (١) انسانا خيرا حقا !

نعم .. ان هذه الآلة ذات الاسنان والتروس الرهيبة التى التهمت عددا ضخما من الرءوس — آلة « فارمناتشى » و « فوجلانس » و « دولانكر » و « ايزاك لوازيل » و «أوبيد» و « ماشوه » ـ هذه الآلة قد بدأت تضمحل .. بدأت تهزل .. بدأت تموت ! !

هاهى ذى ساحة الاعدام لا تريدها ، لان هذه الساحة تريد ان ترد لنفسها اعتبارها .. ان شاربة الدماء العجوز قد سلكت فى شهر يوليو سلوكا حسنا (٢) ، فهى تريد منذ الآن ان تحيا حياة افضل ، وان تظل جديرة بصنيعها الاخير (٣) .. ان الحياء يعود اليها ، وهى التى كانت قد حلت محل المشانق من ثلاثة قرون ، فهى تخجل من مهنتها السابقة ، وتود أن

---

(١) الدكتور « جيوتان » مخترع المقصلة وقد عرفت باسمه

(٢) كناية عن ان المقصلة لم تقتل احدا فى ذلك الشهر بعد ان صدر الامر بايقاف تنفيذ كل احكام الاعدام الى اجل غير مسمى كما سبقت الاشارة الى ذلك — المترجم

(٣) اى بعملها الصالح فى شهر يوليو

تفقد اسمها البشع . انها تطلق الجلاد .. وتغسل الدم من فوق « بلاطها »

وفى هذه الساعة ، تنفذ عقوبة الاعدام خارج باريس ! فلننقلها هنا اذن بصراحة ، فخروجها من باريس يعنى خروجها من المدنية

ان جميع الاعراض فى صالحنا ، ويبدو كذلك ان هذه الآلة البشعة ، أو بالاحرى هذا الوحش المصنـــوع من الخشب والحديد ، والذى هو تحفة الدكتور « جيــوتان » يبدو ان هذه الآلة تغدر وتقـــاوم . اننا اذا نظرنا من زاوية معينـــة الى هــذا العدد من أحـكام الاعـدام الرهيبة التى نفـــذت وسردنا تفاصيلها آنفا ، لوجدنا أنها تعتبر دلالات ممتـــازة ، فالمقصلة تتردد وتحجم وتقصر فى تأدية وظيفتها ، وها هو ذا بناء عقوبة الاعـــدام العتيد العتيق بأسره قد أخـــذ يتفكك ويتداعى

وسوف ترحل هذه الآلة البغيضة من فرنسا ، فنحن نقدر ذلك تقديرا ونعول عليه ، وهى سوف ترحل عرجاء ، باذن الله ، لأننا سنحاول جاهدين أن نوجه اليها ضربات قاصمة

فلتذهب اذن عند قوم آخرين ، لتذهب عند شعب همجى يقبل ان يستضيفها

لقد كان البنـاء الاجتماعى يرتكز فيمـا مضى على ثلاث قواعد هى : القسيس ، والملك ، والجلاد . ومنذ زمن بعيد ، ارتفع صوت يقول : « لقد ذهب سلطان الأساقفة ! » ...

وفى السنوات الاخيرة صاح صوت آخر يقول : « ان الملوك ذهبوا ! » .. والآن ، حان الوقت ليرتفع صوت ثالث ويقول: « ان الجلاد راحل ! »

وهكذا ، يكون المجتمع القديم قد انهار حجرا بعد حجر ، وتكون العناية الالهية قد قوضت أركان الماضى بأسره

ان الذين ندموا على تقلص نفوذ الدين ، استطعنا أن نقول لهم : ان الدين باق ، والذين يندمون على ذهاب الملوك نستطيع ان نقول لهم : ان الوطن باق . اما الذين سيندمون على ذهاب الجلاد فليس لدينا ما نقوله لهم

ولا يحسبن أحد ان النظام سوف يختفى باختفاء الجلاد ، فسوف لاتتداعى عمد المجتمع الجديد لأن هذا المفتاح البشع المشئوم ينقصها ، وليست المدنية الا سلسلة من التغييرات المتتابعة ، فماذا أنتم واجدون عندئذ ؟

انكم ستشهدون تغيير العقوبات ، وسوف يدخل قانون المسيح الرحيم أخيرا فى اللوائح المعمول بها فى المحاكم ويشع من نوره عليها . اننا سننظر الى الجريمة على أنهـا مرض ، وسوف يكون لهذا المرض أطباؤه الذين سـيحتلون أماكن قضاتكم ، ومستشفياته التى ستحتل أماكن ليمانكم .. ان الحرية والصحة ستجتمعان معا

نعم ، اننا سنصب البلسم والزيت حيث كان يطبق الحديد والنار . وسوف نعالج هذا المرض بالرحمة والاحسان بعـد ان كان يعالج بالغضب والانتقام

وسوف يكون ذلك بسيطا ورائعا حقا
فالاحسان يحل مكان الانتقام
والرحمة تحل محل القتل
وهذا كل ما نهدف اليه

في ١٥ مارس عام ١٨٣٢

الفصل الأول

قضيتي

فى سجن ((بيستر))

محكوم على بالاعدام !

اه ! هاقد مضت على خمسة اسابيع وانا اقيم وحدى مع هده الفكرة ، وحدى دائمـــا ، اتجمد رهبـــة لوجودها معى ، وارزح تحت وطأتها على الدوام !

وقديما ، كنت رجلا كأى رجل آخر . واقول « قديما » لان هذه الاسابيع الخمسة تبدو لى وكأنها دهر طويل ! كانت لدى فى كل يوم فكرة ، بل فى كل ساعة ، وفى كل دقيقة ،وكانت نفسى الغنية الشابة حافلة بالنزوات والتصورات ، تتسلـــلى بأن تسردها على واحدة بعد أخرى ، بلا ترتيب وبلا نهاية ، وهى تطرز بالنقوش التى لا تنتهى هذا القماش الرفيع المتين الذى تنسجه الحياة

كان رأسى وقتئذ عامرا بالفتيات الشابات ، وبمـــلابس المطارنة البديعة ، وبالمعارك الرابحة ، والمسارح التى تغمرها الضوضـاء والاضواء . وكان عامرا كذلك بالفتيات الصغيرات وبنزهات فى ظلام الليل الداجى تحت اغصان شجر الكستناء الطويلة . لقد كان فى خيالى عيد دائم وكنت استطيع أن أفكر فيما اريد فى اى وقت . . فقد كنت حرا !

اما الآن فانى أسير . فجسمى مكبل بالحديد فى زنزانة ،

ونفسي سجينة فى فكرة مروعة دامية لا ترحم ! ولم يعد لدى سوى فكرة واحدة ، سوى اقتناع واحد ويقين واحد: انى محكوم على بالاعدام !

وبهما فعلت ، فان هذه الفكرة الرهيبة هنا دائما ، الى جوارى ، وكانها شبح جهنمى من الرصاص يقف غيورا بمفرده أمامى أنا البائس ، ويواجهنى وجها لوجه ، فيطرد عنى كل تسلية ويهزنى هزا عنيفا بيدين فى مثل برودة الثلج كلما أردت أن أدير رأسى أو أن أغمض عينى . ان هذه الفكرة المفزعة تتسلل الى بكل الطرق ، فى الوقت الذى تريد نفسى فيه أن تهرب منها ، وتمتزج كنغمة رهيبة بكل الالفاظ التى توجه الى ، وتلتصق بى فى أسوار زنزانتى الكئيبة ، وتطاردنى فى يقظتى ، وتتجسس على فى منامى المضطرب ، ثم تظهر مرة أخرى فى أحلامى فى صورة سكين !

لقد استيقظت الآن فزعا بسببها وانا اقول فى نفسى : « انه ليس الا حلما ! » .. حسنا ! فحتى قبل أن تجد عيناى الثقيلتان متسعا من الوقت كى تنفتحا تماما لتريا هذه الفكرة المحتومة مكتوبة فى هذا الواقع المروع الذى يحيط بى على بلاط زنزانتى الرطب المبلل ، وفى ضوء مصباحى الليلى الخافت ، وفى نسيج ردائى الخشن الردىء ، وعلى وجه الحارس المظلم الذى كانت « زمزميته » تلمع من خلال القضبان الحديدية .. حتى قبل أن تجد عيناى الثقيلتان متسعا من الوقت لتريا كل ذلك ، فقد بدا لى أن صوتا قد همس فى أذنى يقول : « أنت محكوم عليك بالاعدام ! »

كان ذلك فى صبيحة يوم جميل من أيام شهر أغسطس ، وكان قد مضى على موعد بدء نظر قضيتى ثلاثة أيام . كان اسمى وجريمتى يجمعان خلالها فى كل صباح جمعا غفيرا من المتفرجين ، كانوا يتهافتون على المقاعد فى قاعة الجلسة كما تتهافت الغربان على جثة عفنة ! ثلاثة أيام كانت استعراضات القضاة والشهود والمحامين ، وممثلى الاتهام باسم الملك ، تمر خلالها ثم تمر من أمامى ، فتثير السخرية تارة ، وتارة تكون دامية ، ولكنها كئيبة ومعتمة على الدوام

ولم أستطع ان أنام فى الليلتين الاوليين من أثر القلق والرعب ، ولكننى نمت فى الليلة الثالثة من الضيق والكلل . وكنت قد تركت المحلفين وهم يتداولون فى منتصف الليل فاعادنى الحراس الى زنزانتى حيث سقطت من فورى على قشها فى سبات عميق ، فى سبات النسيان . فكانت هذه اول ساعة أصبت فيها شيئا من الراحة منذ عدة ايام

وكنت لا أزال مستغرقا فى أعماق هذا السبات عندما أتى السجان ليوقظنى . وفى تلك المرة ، لم يكن وقع قدميه الثقيلتين بحذائه الغليظ ، ولا صليل رزمة المفاتيح التى كان يحملها دائما معه ، ولا قرقعة الاقفال الخشنة ؛ لم يكن هذا كله كافيا لايقاظى ، وانما كان عليه أن يستعين بصوته الجهورى الخشن النبرات لينتزعنى من نومى المحموم ، وأن يقبض على ذراعى ليهزنى بيده الغليظة وهو يقول لى فى ارهاب :

ـ قم اذن !

ففتحت عينى وانتفضت مذعورا لاجد نفسى جالسا على القش ! وفى تلك اللحظة ، رأيت من خلال النافذة الضيقة المرتفعة فى زنزانتى ، قطعة السماء الوحيدة التى كان يمكننى أن اراها من بعيد ، ورأيت هذا الضوء الاصفر الذى يبدو شمسا للأعين ، التى الفت ظلام السجون .. لشدما أحب الشمس !

وتمتمت أقول للسجان :

ـ ان الطقس جميل !

فمكث الرجل صامتا لحظة دون أن يرد على بحرف ، وكأنه كان يسائل نفسه عما اذا كان هذا الذى أمامه يستحق منه ان يقول له اية كلمة ، ثم غمغم يقول فجاة فى شيء من الجهد :

ـ هذا محتمل

وبقيت بغير حركة ، وروحى نصف نائمة ، وفمى يبتسم وعيناى لا تتحولان عن هذا الشعاع الذهبى الرقيق الذى كان يزين السقف

وعدت أكرر قائلا :

ـ هذا يوم جميل

فأجابنى السجان قائلا فى حزم :

ـ نعم .. انهم ينتظرونك

فنقلتنى هذه الكلمات القليلة ، التى تشبه الخيط الذى يقطع طيران الحشرة ، فى عنف الى عالم الحقيقة والواقع .

وفجاة رأيت فى مثل وميض البرق قاعة محكمة الجنايات المعتمة ، وقفص الاتهام ، وثلاثة صفوف من الشهود تنطق وجوههم بالغباء ، والجنديين الواقفين عن يمينى وشمالى ، والارواب السوداء تتحرك هنا وهناك ، ورءوس المتفرجين تبدو كالنمل عند نهاية القاعة فى الظل ، واعين هؤلاء المحلفين الاثنى عشر المثبتة على ، الذين سهروا بينما كنت نائما !

ونهضت من فوق القش ، وأسنانى تصطك ، ويداى ترتجفان ، ولا تعرفان أين تجدان ملابسى ، وكانت ساقاى متخاذلتين ، لا تقويان على حملى ، فتعثرت عند اول خطوة خطوتها وكأنى حمال يحمل حملا فوق طاقته ، ومع ذلك فقد تبعت السجان

وكان الجنديان فى انتظارى على باب الزنزانة . وما كدت اخرج منها حتى وضعا فى يدى قيدا حديديا له قفل صغير معقد ، اقفلاه فى عناية ، فتركتهما يفعلان ، فقد كان قيدى آلة توضع فوق آلة

واجتزنا فناء السجن الداخلى ، فبعث هواء الصباح المنعش فى اوصالى شيئا من النشاط ، ووجدت نفسى ارفع راسى الى اعلى . كانت السماء صافية الاديم ، وكانت أشعة الشمس الدافئة التى تقطعها المداخن المرتفعة ترسم مثلثات كبارا من الضوء من فوق جدران السجن المعتمة العالية . لقد كان الجو جميلا حقا

وصعدنا سلما حلزونيا ثم مررنا خلال دهليز من بعده دهليز آخر ، ثم ثالث ، حتى انتهينا الى باب منخفض فتح على الفور ، فلفح وجهى هواء ساخن تختلط فيه الضوضاء ٠ كان هذا هو جو أنفاس المحتشدين فى قاعة محكمة الجنايات

وما كدت أبدو حتى حدثت ضوضاء صادرة من قعقعة الإسلحة المختلطة بأصوات الحاضرين ، وتحركت المقاعد فى جلبة عالية ، وفتحت الحواجز محدثة صريرا كئيبا ٠ وكان يبدو لى وأنا أعبر القاعة الطويلة بين كتلتين من الجماهير ، وصفين من الجنود ، أننى كنت المركز الذى ترتبط به الخيوط التى كانت تحرك كل تلك الوجوه المتيقظة المشرئبة نحوى

ولاحظت فى تلك اللحظة أنى لم أكن مكبلا بالحديد ، لكنى لم استطع أن أذكر أين أومتى كانوا قد نزعوا عنى قيدى ؟

وساد عندئذ صمت عميق ٠ وكنت قد وصلت الى مكانى حينما سكنت الضوضاء الصادرة من الجمهور ، فسكتت أيضا الضوضاء التى كانت تدور مع أفكارى ، وفهمت من فورى فى وضوح مالم أكن أتصوره الا مشوشا غامضا منذ لحظات : أدركت أن اللحظة الحاسمة قد حانت وأنى أحضرت الى هناك لسماع النطق بالحكم على

ولبشرح ذلك من يستطيعه منكم،فان الطريقة التى أوحت الى بهذه الفكرة لم تبعث فى نفسى الرعب ! كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها ، وضوضاء المدينة تصل مع الهواء من الخارج

دون حائل ٠ وكانت القاعة مضيئة كما لو كان يحتفل بعرس وكانت أشعة الشمس المرحة ترسم صورا لمصاريع النوافذ هنا وهناك ، تارة طويلة جدا على أرض القاعة ومكسورة تارة أخرى عند زوايا الجدران

وكان القضاة جالسين فى نهاية القاعة وقد ارتسمت على وجوههم علامات الرضا والامتنان ، وربما كان السبب فى ذلك هو سرورهم بأنهم كانوا على وشك الانتهاء ٠ وكان انعكاس زجاج احدى النوافذ يسقط على وجه رئيس المحكمة ويضيئه بعض الشيء فيبدو عليه شيء من الطيبة والهدوء ، بينما أخذ احد معاونى النيابة يتبادل حديثا يغلب عليه المرح مع سيدة جميلة ترتدى قبعة وردية اللون كان قد حاباها باجلاسها خلفه مباشرة ، وكان الرجل يتحدث اليها وهو يمسك بياقة ثوبه ويعبث بها

وكان المحلفون وحدهم هم الذين تبدو على وجوههم آثار التعب الشديد ، ولكن هذا فيما يبدو كان سببه أنهم قد سهروا الليل بأكمله ، وكان بعضهم يتثاءب ، ولم يكن فى مظهرهم مايدل على أنهم رجال كانوا قد قرروا لتوهم الحكم بالاعدام ، ولم أقرأ فى وجوه هؤلاء البورجوازيين الطيبين الا رغبة كبرى فى النوم

وكانت هناك أمامى نافذة مفتوحة على مصراعيها ، كنت أسمع من خلالها بائعات الزهور وهن يضحكن على رصيف نهر «السين» ، وعلى حافة ركن النافذة ادهشتنى رؤية نبتة

صغيرة صفراء يغمرها شعاع من الشمس وكانت تلعب مع الهواء فى ثغرة من ثغرات حجر الجدار

فكيف يمكن أن تنبت فكرة كئيبة بين كثير من تلك الاحساسات الجميلة ؟ . لقد كان يغمرنى الهواء والشمس فكان يستحيل على أن افكر فى شىء آخر غير الحرية • ان الامل كان يشع فى نفسى كما يشع من حولى ضوء النهار ، وانتظرت النطق بالحكم على وأنا مطمئن كما ينتظر المرء الخلاص والحياة

ووصل المحامى الموكل بالدفاع عنى فى خلال ذلك ، وكانوا فى انتظاره • وكان الرجل قد تناول غداء فاخرا فى شهية كبيرة ، وما كاد يصل الى مكانه حتى مال نحوى مبتسما وهو يقول :

ـ اننى آمل

فاجبته فى خفة وانا ابتسم أيضا :

ـ أليس كذلك ؟

فقال المحامى :

ـ نعم ، لست أعرف شيئا عن قرارهم بعد ، ولكنهم قد استبعدوا فكرة سبق الاصرار دون شك ، فلن تكون هناك حينئذ الا الاشغال الشاقة المؤبدة

فأجبته قائلا فى سخط :

ـ ما هذا الذى تقول يا سيدى ؟ •• انى أوثر الموت مائة مرة !

نعم •• الموت ! ومن ناحية أخرى ، فان صوتا داخليا لا اعرفه كان يكرر فى نفسى هامسا : « ما الخطر الذى اتعرض له بقولى هذا ؟ هل سبق ان نطق من قبل بحكم الاعدام الا فى منتصف الليل على ضوء المشاعل ، وفى قاعة معتمة سوداء فى ليلة من الليالى الباردة ، ليالى الشتاء المطيرة ؟ .. ولكن •• فى شهر اغسطس ، وفى الساعة الثامنة صباحا ، وفى يوم جميل كهذا ، ومع هؤلاء المحلفين الطيبين •• كلا ، هذا مستحيل ! وكانت عيناى ترتدان لتقعا على الزهرة الصفراء الجميلة وهى تتمايل فى الشمس .. »

وفجأة ، دعانى الى الوقوف رئيس المحكمة الذى لم يكن ينتظر سوى حضور المحامى ، فوقف الجنود شاكى السلاح ووقف جميع الحاضرين فى نفس اللحظة كما لو كان ذلك قد حدث بتأثير قوة كهربائية ! وكان ثمة وجه جامد لا تعبير فيه يجلس الى منضدة فى أسفل هيئة المحكمة ، وكان هذا على ما أظن كاتب الجلسة ، الذى بدأ الكلام فأخذ يتلو القرار الذى كان المحلفون قد نطقوا به فى غيبتى • ولم تكد كلماته تطرق أذنى حتى انبثق من كل أعضائى عرق بارد واستندت الى الجدار لامنع نفسى من السقوط

وقال رئيس المحكمة يسأل المحامى :

ـ هل لديك ما تقوله يا استاذ خاصا بتطبيق العقوبة ؟

وكنت استطيع انا أن اقول الكثير ، غير ان ذهنى ظل خاويا لم يخطر به شىء ، وبقى لسانى معقودا وملتصقا بحلقى

ونهض محامي الدفاع ففهمت أنه كان يحاول أن يخفف قرار المحلفين ، بأن يستبدل بحكم الاعدام العقوبة الأخرى التى كنت قد احسست بأن كرامتى قد جرحت حينما سمعته يتحدث عنها منذ لحظة كشيء يأمله

ولابد ان سخطى كان شديدا بحيث ظهر خلال المشاعر الكثيرة التى كانت تتضارب فى خاطرى ، وأردت أن أكرر للمحامى فى صوت مرتفع ما كنت قد قلته له من قبل :

« انى أوثر الموت مائة مرة ! » ، غير ان انفاسى تقطعت ، ولم استطع الا ان أوقفه بجذبه من ذراعه فى عنف وانا أصيح فيه بقوة المحموم : « كلا ! »

وقاوم المدعى العام المحامى بكل قواه ، فكنت استمع الى نضاله فى سرور ينطوى على الغفلة والغباء ! وخرج القضاة بعد لحظات ثم عادوا ثانية الى مقاعدهم ، وقرأ رئيس المحكمة نص الحكم الذى سبق أن حكم به على !

وقال جمهور الحاضرين : « محكوم عليه بالاعدام ! » ..

وفى الوقت الذى كان الحراس يقودوننى فيه الى خارج قاعة الجلسة ، اندفع كل هذا الجمهور من خلفى فى دوى كأنه صوت بناء ينهار ، بينما كنت اسير متعثرا فى خطواتى كالثمل وقد تملكنى الذهول ! ان ثورة كانت قد انطلقت فى نفسى منذ لحظة ، وكنت اشعر حتى صدور الحكم بأننى استنشق الهواء ، وبان قلبى ينبض ، وبأننى أعيش فى نفس الوسط الذى يعيش فيه غيرى من الناس . ولكنى الآن كنت أميز فى وضوح حاجزا يفصل

بينى وبين العالم ، ولم يكن يظهر لى شيء على نفس الصورة التى كان يبدو لى فيها من قبل : فهذه النوافذ العريضة المضيئة ، وهذه الشمس الجميلة الحانية ، وهذه السماء الزرقاء النقية ، وهذه الزهرة الجميلة ، كل ذلك بدا فى عينى ابيض شاحبا بلون الكفن .. وهؤلاء الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا يتزاحمون من حولى ويندفعون فى طريقى كانوا يتراءون لى كالأشباح !

فى العربة السوداء

وكانت هنـاك عربة قذرة سوداء مقفلة بقضبان من حديد تنتظرنى عند أسفل السلم .. والقيت وانا اصعد اليها نظرة عابرة على الميدان ، فرايت المارة يعدون نحوها وهم يصيحون قائلين : « محكوم عليه بالاعدام ! » واستطعت ان اميز من خلال السحابة التى كان يبدو لى انها تفصل بينى وبين الأشياء ، فتاتين شابتين كانتا تتابعانى بأعين نهمات ، فقالت صغراهما وهى تصفق بيديها : « حسنا ! سيكون تنفيذ الحكم فيه بعد ستة أسابيع ! »

انا محكوم على بالاعدام !

حسنا ! ولم لا ؟ انى اذكر اننى قرات ذلك فى كتاب من الكتب لم يكن به شىء حسن سوى هذه العبارة : « ان البشر جميعا محكوم عليهم بالاعدام ، وانما يختلف وقت تنفيذ الحكم ! » . فماذا الذى قد تغير كثيرا اذن فى موقفى ؟

كم من اناس قد ماتوا بينما كانوا يعدون انفسهم لحياة طويلة منذ اللحظة التى نطق فيها بالحكم على ؟ وكم من شباب حر فى أوج الصحة قد سبقنى وكان يعتزم الذهاب فى اليوم المحتوم ليرى راسى وهو يهوى فى ساحة الاعدام ! وكم من هؤلاء

الناس الذين يمشون ويستنشقون نسيم الحرية وهم يخرجون ويدخلون على هواهم ، كم من هؤلاء سوف يسبقنى كذلك الى عالم الموت !

ثم .. على اى شىء اندم فى الحياة ؟ اهو اليوم المظلم ؟ ام هو الخبز الاسود فى الزنزانة ، مع الطعام الهزيل الذى يلقى الى فى الدلو ، دلو المحكوم عليهم بالاعدام ؟ أم الغلظة والمعاملة الفظة اللتان يعاملنى بهما السجانون والحراس ، وانا الذى ربيت تربية مرهفة ناعمة ؟ ام هو حرمانى من رؤية اى مخلوق آدمى يعتقد انى استحق ان يبادلنى الحديث ؟ ام أن ارتجف بغير انقطاع مما فعلته ومما سيفعلونه بى ؟ اليس هذا تقريبا هو كل الخير الذى يستطيع الجلاد أن ينتزعه منى ؟

آه ! ولكن هذا لا يهم .. انه شىء فظيع !

نقلتنى العربة السوداء الرهيبة الى هنا ، فى سجن «بيستر» البشع ، وهو مبنى يبدو على مظهره بعض العظمة عند رؤيته من بعيد ، فهو يظهر فى الافق على جبهة تل ، ويحتفظ بشىء من روعته الملكية السابقة اذا نظرت اليه من بعيد ، ولكنه يصير كوخا حقيرا عندما تقترب منه ! فأبراجه التى سقطت تحت مستواها الأصلى تجرح بمنظرها العين ، ولست ادرى اى شىء حقير مخجل لطخ واجهاته الملكية بالقذارة ، اذ تبدو كان جدرانها مصابة بالجذام ، ونوافذه لم يبق بها زجاج ولا مصاريع ، ولكنه كتل ضخمة من قضبان حديدية متقاطعة يلتصق بها هنا وهناك وجه شاحب يبدو عليه الشرود ، وجه

لشخص محكوم عليه او وجه لشخص مجنون !
انها الحياة من قرب !

العودة الى بيستر

ما كدت أصل الى سـجن « بيسـتر » حتى تلقفتنى أيد حديدية ، وضوعفت الاحتياطات فى الحال . فلا سكين مع الطعام ولا « شوكة » ، بل قميص المحكوم عليه فحسب ، وهو عبارة عن كيس من التيل الخشن ليس له كمان سجنت بداخله ذراعاى !

انهم كانوا مسئولين عن بقائى حيا ، وكنت قد استانفت الحكم،وهذا الاستئناف قد يستغرق من ستة اسابيع الى سبعة اسابيع غالية الثمن ، وكان من المهم ان يحتفظوا بى سليما معافى لساحة الاعدام !

وعوملت فى الأيام الاولى بلطف كان يبدو لى رهيبا مفزعا ، لظرف السجان ورقته رائحة من روائح المشنقة ، ثم ما لبثوا ان تغلبت عليهم العادة لحسن الحظ فعاملونى فى غلظة كما يعاملون غيرى من المساجين ، ولم يعودوا يميزوننى على غير المألوف منهم بأدبهم الذى كان يجعلنى أتصور الجلاد واقفا امامى على الدوام . ولم يكن ذلك هو التحسن الوحيد الذى طرا على موقفى ، بل ان شبابى ، ودعتى ، وعناية قسيس السجن بأمرى،وبوجه خاص بعض الكلمات اللاتينية التى كنت ارجهها الى البواب فلا يفهم من امرها شيئا ، كل ذلك قد فتح

لى باب النزهة مرة فى كل أسبوع مع المسجونين الآخرين ، وذهب بالقميص الخشن الغليظ الذى كان يشل حركتى . كما اعطيت كذلك مدادا وورقا وقلما ومصباحا بعد تردد ليس بالقصير

وكانوا يطلقوننى فى كل يوم أحد بعد القداس فى فناء السجن ساعة الفسحة حيث اتبادل الحديث مع المسجونين ، وكان هذا بالنسبة الى شيئا ضروريا للغاية . حقا ان هؤلاء البائسين اناس طيبون ، وهم يقصون على وقائعهم وحيلهم ، وهى أمور ترسل فى الجسم رعدة قاسية ولكنى كنت اعلم انهم يفاخرون

وكان هؤلاء المسجونون يعلموننى ان اتحدث بلغة السجون كما يقولون ، وهى لغة مكتملة النمو مشتقة من اللغة الجارية كنوع من الورم الخبيث ، أو كالسنط فى الجسد ، لبعض الفاظها وقع عنيف وجمال مخيف ، وذلك مثل قولهم : « انه يمشى على العنب الاحمر » ، ويعنون به ان الدم فى طريقه . وقولهم : « يتزوج الارملة » ، ويعنون به انه يشنق كما لو كان حبل المشنقة ارملة فقدت كل ازواجها السابقين المشنوقين !

ان راس اللص له فى السجن اسمان : « السربون » عندما يفكر ويعقل وينصح بالجريمة ، و « المقطوع » عندما يقطعه الجلاد ! وفى بعض الأحيان ، تكون الفاظ السجن هذه شبيهة بروح المسرحية الخفيفة المرحة (الفودفيل) ، كقولهم : « شال من خيزران » (عربة « الزبال ») .. و « الكاذبة » (اللسان)! وفوق هذا ، ففى كل لحظة وفى كل مكان تسمع كلمات غريبة

وعجيبة تتسم بالقبح والقذارة ، ولا أدرى من اين تخرج ، مثل : الدرع (الجلاد) ، و «الخازوق» (الموت) ، و «الصندرة» (ساحة الاعدام)! .. ألفاظ تبدو لى كالعناكب والابراص ،حينما يسمعها المرء تترك فى نفسه الاثر الذى يحدثه الشىء القذر المعمر ، وكأنها كتلة من الخرق البالية التى تنفض أمام عينيه

ومهما يكن من شىء ، فان هؤلاء الرجال يرثون لحالى ، وهم وحدهم الذين يفعلون ذلك ، اذ ان السجانين والحراس — ولست احقد عليهم — يتحدثون ويضحكون ، ويتكلمون عنى فى وجودى وكأننى شىء يمت الى عالم الجماد !

الفصل الثانى

أيام لن تعود

مذكراتى

وقلت فى نفسى :

لماذا لا اكتب ما دامت لدى ادوات الكتابة ؟ ولكن ، ماذا اكتب ؟ اننى سجين بين اربعة جدران ضخمة من الحجر العارى البـــارد الحزين ، حيث لا حرية لخطواتى ولا افق يمتـــد امام عينى ، ولا تسلية لى طول الوقت الا ان اتتبع بطريقة آلية ما يجرى خارج زنزانتى من خلال كوة الباب المربعة الصغيرة البيضاء ، وما كانت تعكسه امامى مباشرة على الحـــائط المظلم ، وكما كنت اقول منذ برهة ، فانى كنت وحدى وجها اوجه مع فكرة الجريمة والعقاب ، فكرة القتل والموت ! فهل سيكون لدى ما اقوله وانا الذى صرت انسانا لا داعى لوجوده فى هذا العالم ؟ وماذا عساى ان اجد فى هذا الانسان الذابل الخاوى ؟

ولكن .. لم لا ؟

اذا كان كل شيء من حولى يسير على وتيرة واحدة ، ولا لون له على الاطلاق ، افلا تضطرم فى أعماق نفسى عاصفة عاتية ، وكفاح مستعر ، ومأساة دامية ؟ ان هذه الفكرة الثابتة التى تستحوذ على نفسى تتبدى امامى فى كل ساعة وفى كل لحظة فى شكل جديد ، وهى تزداد كآبة وتلونا بالدماء بساعة بعد

ساعة كلما اقترب المصير المحتوم ! فلماذا لا احاول ان اقول لنفسي كل ما احس به ، واقص عليها ما اكابده من مشاعر عنيفة ، بعضها يحاصرني فعلا وبعضها مجهول لا يزال ينتظرني في موقفي هذا الميئوس منه الذي اجد نفسي فيه الآن

ان الموضوع غني ما في ذلك شك ، ومهما بدا لي ما تبقى من عمري قصيرا فسوف يكون في الهواجس والرعب والعذاب الاليم ، الذي يملؤه منذ هذه الساعة الى ان تحين ساعتي الاخيرة ، مايكفي لاستهلاك هذا القلم ونفاد هذا المداد كله. ومن جهة اخرى ، فان الوسيلة الوحيدة التي استطيع بها ان اخفف بعض الشيء من آلام هذه الهواجس هي ان الاحظها ثم اصفها ، فهذا خليق بان يسري عني بعض التسرية

وفوق هذا ، فان ما ساكتبه هكذا قد لا يكون عديم النفع . فهذه المذكرات التي تسجل آلامي ساعة فساعة ، ودقيقة فدقيقة ، وعذابا اثر عذاب — لو اني وجدت في نفسي القدرة على تدوينها حتى اللحظة التي سوف يستحيل على جثماني ان اتابع كتابتها — اذ ان قصة مشاعري هذه ستبقى حتما ناقصة بلا نهاية وان كانت كاملة من حيث طاقتي — هذه المذكرات الن تحمل في طياتها عظة كبيرة وعميقة ؟ الن يكون في هذا السجل المدون عن الفكر وهو يحتضر ، وعن الآلام التي تتزايد باستمرار .. هذا النوع من التشريح العقلي لانسان محكوم عليه بالموت .. الن يكون فيه اكثر من درس لاولئك الذين يصدرون هذا الحكم ؟

نعم .. فقد تجعلهم قراءة هذه المذكرات اقل تسرعا ، وتحملهم على شيء من التروي في المستقبل عندما يكون الأمر متعلقا باسقاط راس يفكر ، راس انسان ، فيما يسمونه ميزان العدالة ! قد لا يكون هؤلاء التعساء فكروا قط في هذا التتابع البطيء لالوان العذاب التي تنطوي عليه هذه الصيغة الموجزة التي ينطق بها في استخفاف : « الحكم بالاعدام ! » ترى هل وقفوا قط مرة والحدة ، واحدة فحسب ، عند هذه الفكرة الاليمة ليروا ان في هذا الانسان الذي يقطعون رقبته ذكاء كان قد اعتمد على الحياة ، وان فيه روحا لم تكن قد تهيأت بعد للموت ؟

كلا ! انهم لا يرون في هذا كله الا سكينا مثلثة الشكل تهوي راسيا على رقبة الشخص المحكوم عليه بالموت ، وهم يحسبون دون شك انه لا شيء هناك بالنسبة اليه ، لا من قبل ذلك ولا من بعده !

ان هذه المذكرات سوف تظهر لهم انهم مخطئون ، فقد يتاح لها ان تنشر في يوم من الايام ، فتفتح أعينهم لحظات على آلام النفس التي لا يشك فيها احد منهم . انهم يفخرون بقدرتهم على القتل دون ان يتألم الجسم تقريبا بسبب سرعة المفصلة في انجاز مهمتها الدامية ، غير ان هذا ليس كل ما في الامر ، اذ ما قيمة الألم البدني اذا قيس بآلام النفس ؟

انا لنشمئز من هذه القوانين الموضوعة على هذه الصورة التي تتحرك أنفسنا شفقة بها ، وسوف يأتي يوم تكون فيه هذه

المذكرات ، وهى الأسرار الاخيرة لانسان يائس ، قد اسهمت فى هذا المضمار .. اللهم الا اذا عبثت الريح بعد موتى بهذه الاوراق الملطخة بالوحل فى فناء السجن ، أو لصقها سجان على شكل نجوم فى نافذة مكسورة الزجاج فى حجرته فتتعفن هناك تحت قطرات المطر

وسواء أكان ما اكتبه هنا يمكن ان يكون يوما ما نافعا لغيرى ، أم انه أوقف القاضى وهو يهم بالنطق بالحكم ، أم انقذ البائسين من ابرياء ومذنبين ، انقذهم من الاحتضار الذى حكم به على .. فلماذا كل ذلك ؟ .. وما فائدته ؟ .. وما اهميته ؟ .. ماذا يهمنى ان تقطع رءوس اخرى بعد ان يكون راسى قد قطع ؟.. هل استطعت حقا ان أفكر فى هذه الفكرة الجنونية ، فى ان أقذف بالمقصلة على الأرض واهدمها بعد ان اكون قد صعدت عليها ؟ هل لى ان أسائلكم قليلا : ماذا سيعود على من تحطيم المقصلة بعد ان اذهب ضحية لها ؟

آه ! ان الشمس ، والربيع ، والحقول المملوءة بالأزهار ، والطيور التى تستيقظ فى الصباح ، والغيوم ، والأشجار ، والطبيعة ، والحرية ، والحياة .. كل ذلك لم يعد لى منه شيء !

رباه ! .. انه انا الذى يجب انقاذه ! هل صحيح ان هذا غير ممكن ؟ وانه يجب أن أموت غدا ، بل وربما اليوم ؟.. هل صحيح ان الامر هكذا ؟ .. يا الهى ! ان هذه الفكرة الرهيبة لتدفعنى الى التفكير فى تحطيم راسى على جدار زنزانتى

والآن ، فلنعد ما تبقى لى :

مهلة مدتها ثلاثة أيام عقب النطق بالحكم لتقديم طلب الاستئناف الى محكمة النقض - وثمانية أيام من النسيان فى نيابة الاستئناف ترسل بعدها المستندات ـ كما يقولون ـ الى مكتب الوزير . وخمسة عشر يوما من الانتظار لدى الوزير الذى لايحس بوجود هذه الاوراق ولا يعلم من امرها شيئا، ومع ذلك فالمفروض أنه يحيلها بعد فحصها الى محكمة النقض ، حيث يتم ترتيبها وترقيمها وتسجيلها ، لان المقصلة لديها عمل كثير ، ويجب الا يمر بها كل انسان الا فى دوره . . . ثم خمسة عشر يوما للتأكد من انه لم يحدث لك امتياز ما خارج حدود القوانين واللوائح

وأخيرا ، تنعقد المحكمة عادة فى يوم خميس ، فترفض عشرين طلب استئناف دفعة واحدة ، ثم تعيدها الى الوزير الذى يرسلها الى النائب العام ، فيحيلها هذا الى الجلاد . ويستغرق هذا كله ثلاثة أيام

وفى صباح اليوم الرابع ، يقول وكيل النائب العام لنفسه وهو يلبس ربطة عنقه : « ومع ذلك فيجب أن تنتهى هذه المسألة ! » . وعندئذ ، فان كان نائب كاتب المحكمة ليس مرتبطا بموعد للغداء مع بعض الاصدقاء يمنعه من ذلك ، فان الامر بالاعدام تحدد له دائما دقيقة للتنفيذ ، ثم يحرر ويبيض ويرسل الى الجهة المختصة .. فيسمع منذ فجر اليوم التالى صوت اقامة اخشاب المقصلة فى ساحة الاعدام ، ويصبح

المأذون العموميون عند تقاطع الشوارع وفى الأزقة فى صوت مرتفع مبحوح

كل ذلك يتم فى ستة أسابيع . ان الفتاة الصغيرة كانت على حق ! ولكن ها هى ذى خمسة أسابيع على الاقل ، وربما ستة فلست أجرؤ على أن أعدها ، قد انقضت على فى هـذا السجن ، سجن « بيستر » الحقير ، ويبدو لى أنه منذ ثلاثة أيام مضت كان اليوم يوم خميس

□

لقد فرغت الآن من كتابة وصيتى !

ولكن .. مافائدة ذلك ؟ لقد حكم على بدفع تعويض لن يكون كل ما أمتلكه كافيا لسداده . حقا ان المقصلة باهظة الثمن !

اننى أترك ورائى اما ، وزوجة ، وطفلة !.. طفلة صغيرة فى الثالثة من عمرها حلوة وردية اللون ضعيفة البنيان ، عيناها واسعتان سوداوان وشعرها طويل كستنائى اللون ، وكانت سن ابنتى سنتين وشهرا واحدا عندما رأيتها لآخر مرة

وهكذا ، فسوف يكون هناك بعد موتى ثلاث نساء : واحدة منهن بغير ابن ، والثانية بغير زوج ، والثالثة بلا أب .. ثلاث يتيمات من انواع مختلفة .. ثلاث أرامل باسم القانون !

انى أوافق على أن أعاقب عقابا عادلا ولكن .. هؤلاء البريئات ماذا جنـين ؟ وما ذنبهن ؟ ان هذا لايهم ، فهم يلوثون شرف هؤلاء النسوة الثلاث ويدمرون حياتهن .. انها العدالة !

وليس ما فى الامر أن أمى العجوز المسكين تقلقنى ، فسنها

اربع وستون سنة وسوف تموت من أثر الصدمة ، ولو أنهـا عاشت من بعدى لبضعة أيام فباليتها تجد فى مدفأتهـا لآخر لحظة بعض الرماد الدافىء ، فهى لن تشكو ولن تقول شيئا

وامر زوجتى كذلك لا يبعث فى نفسى القلق ، فهى معتلة الصحة ضعيفة النفس ، وسوف تموت هى الاخرى .. الا اذا اصابها مس من الجنون . انهم يقولون ان الجنون يطيل العمر ، ولكن عقلها لن يتألم عندئذ على الاقل ، ومن ثم فانها ستنام وتكون كانها فى عداد الاموات

اما ابنتى وفلذة كبدى ، طفلتى وصغيرتى « مارى » المسكين التى تضحك وتلعب وتغنى فى هذه الساعة ولا تفكر فى شىء ، فانها هى التى تثير فى نفسى الالم !

فى الزنزانة

هذه هى زنزانتى :

ان مساحتها ثمانى اقدام مربعة ، ولها اربعة جدران سميكة من الحجر ، ترتكز بزاوية قائمة على أرضية من البلاط تعلو بمقدار درجة واحدة على مستوى الدهليز الخارجى · وهناك على يمين الداخل ، عند الباب ، نوع من التجويف يقلد فى سخرية صوان ملابس النساء الذى يوجد عادة داخل الجدران · انهم يلقون فيه بحزمة من القش من المفروض ان يستريح السجين عليها وأن ينام وهو يرتدى سروالا من التيل ، وسترة من القماش الرخيص لا يتغيران صيفا أو شتاء

وفوق رأسى كسماء ، يرى المرء « قبوة » سوداء ــ هكذا يسمونها ــ تتدلى منها خيوط العنكبوت كأنها خرق بالية . وفيما عدا هذا ، فلا نوافذ هناك ، حتى ولا كوة صغيرة ، فلن تجد اللهم الا بابا عتيدا يطغى فيه الحديد على الخشب

كلا ، كلا ·· اننى مخطىء ، ففى وسط هذا الباب الى أعلى ، هناك فتحة مساحتها تسع بوصات مربعة ، تتخللها طولا وعرضا شبكة من حديد على شكل صليب ، يستطيع السجان أن يغلقها أثناء الليل

وفى خارج الزنزانة ، دهليز طويل نسبيا يضاء ويغير هواؤه من طريق نوافذ عالية ضيقة فى أعلى الجدار ، ومقسم الى اقسام بفواصل مبنية ، ويتصل بعضها ببعض بسلسلة من الابواب المتينة غير المرتفعة · ويستعمل كل قسم من أقسام هذا الدهليز ، على نحو ما ، كمدخل لزنزانة شبيهة بزنزانتى ، وفى هذه الزنزانات يضعون المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة الذين يحكم عليهم مدير السجن بعقوبات تأديبية · أما الزنزانات الثلاث الاولى فمخصصة للمحكوم عليهم بالاعدام لانها قريبة من مركز المراقبة ، ومن ثم فهى أكثر ملاءمة للسجان

هذه الزنزانات هى كل ما تبقى من قصر « بيستر » القديم كما بناه فى القرن الخامس عشر الكاردينال « وينشستر » وهو نفس الكاردينال الذى قضى باحراق « جان دارك » ·· اننى سمعت هذا من فضوليين كانوا قد حضروا منذ أيام ليرونى فى زنزانتى ، وكانوا ينظرون الى من بعيد كما ينظر الناس الى الوحوش الضارية فى حدائق الحيوان . وقد حصل السجان يومئذ على خمسة فرنكات

لقد نسيت أن أقول ان هناك جنديا مكلفا بالحراسة على باب زنزانتى ليلا ونهارا ، وان عينى لا تستطيعان أن ترتفعا الى الفتحة المربعة بباب الزنزانة دون أن تلتقيا بعينيه المفتوحتين الشاخصتين الى على الدوام

وفيما عدا هذا ، فهم يفترضون أن الهواء وضوء النهار ينفذان

الى هذا الصندوق المصنوع من الحجر

وبما أن ضوء النهار لم يظهر بعد ، فماذا أفعل بالليل ؟

لقد خطرت ببالى فكرة ، فنهضت واقفا وأدنيت مصباحى من الجدران الاربعة ، فوجدتها مغطاة بالكتابة والرسـوم والاشكال الغريبة ، وباسماء يختلط بعضهـا ببعض ويمحو بعضها بعضا . ويبدو أن كل محكوم عليه قد أراد أن يترك وراءه أثرا ، هنا على الاقل . انها كتابات بالقلم ، وبالطباشير ، وبالفحم ، وبها حروف سوداء وبيضاء ورمادية اللون محفورة فى الاغلب حفرا عميقا فى الحجر . ورأيت هنا وهناك أحرفا بدأت معالمها تنطمس ، ويبدو أنها قد كتبت بالدم

ولو أن نفسى كانت أكثر حرية مما هى فيه لاهتممت حقا بأمر هذا الكتاب الغريب المسطر أمام عينى صفحة صفحة على كل حجر من احجار هـذه الزنزانة ، ولـكنت جعلت من هـذه الشرائح من الافـكار المبعثرة على الاحجار كتابا كاملا اعيـد تاليفه ، وأن أجد مرة ثانية كل رجل وراء كل اسم ، وأن أعيد المعنى والحياة الى هذه الكلمات المحفورة المحطمة ، الى هـذه العبارات المبعثرة المفككة ، الى هذه الالفاظ المبتورة التى بدت لى كأجساد بلا رءوس كالاشخاص الذين كتبوها

ورأيت عند مستوى ارتفاع فراشى المصنوع من القش قلبين ملتهبين يخترقهما سهم ومكتوب فوقهما : « الحب مدى الحياة ! » يا للمسكين ! ماتت أمانيه فى ريعان الشباب !

والى جوار هـذا قبعة مثلثة الزوايا ، من تحتهـا وجه مرسوم بطريقة رديئة ومعه هذه الكلمات : « يحيا الامبراطور .. « عام ١٨٢٤ »

ورأيت قلوبا أخرى ملتهبة ومعها هذه العبارة الخاصة بحياة السـجون : « انى أحب واعبد « ماتيو دنفان ـ جاك »

وعلى الجدار المقابل لسريرى ، وقعت عيناى على هذا الاسم: « بابا فوان » ، وكان حرف الباء الاول كبيرا ومزركشا بنقوش عربية ومرسوما بعناية ، ومن تحت هذا مقاطع من اغنيـة بذيئة . ثم على « قبعة الحرية » المحفورة فى الحجر بشكل عميق بعض الشىء ، وقد كتب من فوقها هذا الكلام : « الى الجمهورية ـ بوريس » .. انه كان احد ضباط الصف الاربعة بمدينة « لاروشيل » ! ياله من شـاب مسكين ! ويا لكآبة ضروراتهم السياسية المزعومة ! فبسبب فكرة أو حلم أو مجرد خيال ، يرى هذه الحقيقة البشعة : المقصلة ! .. وأنا الذى كنت أشكو .. أنا التعس الذى ارتـكبت جريمة بمعنى الكلمـة وأرقت الدماء !

اننى لن أذهب فى بحثى الى أبعد من هذا ، فقد رأيت من فورى صورة رهيبة مروعة مرسومة باللون الابيض فى ركن الجدار : انها صورة هذه المقصلة التى ربما كانت تقام لى فى هذه اللحظة ! وكاد المصباح يسقط من يدى !

وأندفعت عائدا لاجلس على القش ورأسى بين ركبتى ، ثم انقشع فزعى الصبيانى واخـذتنى من جديد الرغبـة فى

الاستطلاع ، ومتابعة قراءة ماهو مكتوب على جـدر الزنزانة

انتزعت من جانب اسم « بابافوان » نسيج عنكبوت ضخم مثقلا تماما بالغبار ، ومعلقا فى زاوية الجـدار ، فرايت تحته اربعة اسماء او خمسة من الممكن أن تقرا بسهولة من بين اسماء اخرى لم يبق منهـا سوى بقع على الجدار . اما الاسماء الواضحة فهى : « دوتان » عام ١٨١٥ ـ « بولان » عام ١٨١٨ ـ « جان مارتان » ١٨٢١ ـ « كاستانج » عام ١٨٢٣

وما كدت اقرا هذه الأسماء حتى انتابتنى ذكريات مظلمة : اما « فدوتان » هو الذى قطع اخاه اربا اربا ، وذهب ليلا الى باريس ليلقى براسه فى نافورة وبجذعه فى المجارى ! و « بولان » هو الذى قتل زوجته ، و « جان مارتان » هو الذى اطلق رصاص مسدسه على والده الشيخ وهو يفتح نافذة . اما « كاستانج » فهو ذلك الطبيب الذى قضى على صديقه وهو يعالجه فى مرضه الاخير ، الذى كان الطبيب نفسه سببا فيه ، وذلك بان كان يعطيه السم على انه دواء . والى جانب هؤلاء « بابافوان » المجنون الرهيب الذى كان يقتل الاطفال بطعنة من سكين فى الراس ! !

قلت فى نفسى : هاهم اولاء من اقاموا من قبلى ضيوفا ن هذه الزنزانة ! واحسست برجفة من الحمى تسرى فى كلينى ! هنا ، على نفس هذه « البلاطة » التى اجلس عليها . جالت فى اذهان رجال الجريمة والدم هؤلاء ، افكارهم الاخيرة .. لقد دارت خطواتهم الاخيرة حول هذا الجدار ، وفى هذا المربع الضيق ، كخطوات حيوان كاسر • لقد تتابع بعضهم فى اثر بعض على فترات متقاربة فى هذه الزنزانة حتى ليبدو لى انها لم تخل ابدا من النزلاء ! لقد تركوا هذا المكان دافئا .. تركوه لى انا ، وسوف اذهب بدورى لالحق بهم فى مقبرة « كلامار » حيث ينمو العشب بغزارة ايما غزارة !

لست اتنبأ بالغيب ، ولا اعتقد فى الخرافات ، ومن المحتمل ان هذه الافكار كانت تثير فى نفسى مزيدا من الحمى ، ولكن بدا لى فجاة وانا احلم على هذه الصـورة ، ان تلك الاسماء المشئومة كانت مكتوبة بالنار على الجدار الاسود ، ودوى فى اذنى رنين قوى اخذ يزداد عنفا وسرعة ، وامتلأت عيناى بوهج احمر ! ثم بدا لى ان الزنزانة كانت مملوءة بالرجال ، برجال اشكالهم غريبة ، كانوا يحملون رءوسهم بايديهم اليسرى وهم يمسكون بها من الفم ، لانها كانت رءوسا لا شعر فيها .. وكانوا جميعا يلوحون الى بقبضات أيديهم مهددين ماعدا قاتل ابيه !

واطبقت عينى وقد تملكنى الهلع ، فرايت عندئذ كل شىء فى وضوح اكثر ، وسواء أكان ما رايته حلما ام رؤيا ام حقيقة ، فقد كنت خليقا بان اجن .. لولا انى احسست بشعور مفاجىء ايقظنى من هذا الكابوس فى الوقت المناسب ، وكدت أقع على ظهرى عندما شعرت ببطن بارد ، وبارجل صغيرة مكسوة بالزغب تزحف فوق قدمى العاريتين . كان هذا هو العنكبوت الذى كان فى طريقه الى الهرب بعد أن ازعجته

ولقد ازال هذا العنكبوت الرؤيا من أمام ناظرى . ويا لها من اشباح مرعبة ! كلا ، انهـا كانت دخانا ينبعث من مخى الخاوى المحموم ! كانت كابوسا على طريقة « ماكبث ! » فالموتى ميتون ، وخاصة هؤلاء . لقد اغلقت عليهم القبور جيـدا بالاقفال ، وليس القبر سجنا يهرب منه الانسان . فكيف حدث اذن انى خفت على هذا النحو ؟

ان باب القبر لا يفتح من الداخل قط

مشهد رهيب

رايت فى هذه الأيام الماضية شيئا بشعا !

كنا فى مطلع الفجر ، وكان السجن يضج بالاصوات ، وكان يسمع صوت اغلاق الابواب الثقيلة وفتحها ، وصرير المزاليج والاقفال الحديدية ، وصليل رزم المفاتيح التى يحتك بعضها ببعض فى احزمة السجانين ، واهتزاز درجات السلم من أعلى الى اسفل تحت وقع خطوات مندفعة ، واصوات ينادى بعضها بعضا ، ويرد بعضها على بعض من طرفى الدهاليز الطويلة ! وكان جيرانى فى الزنزانة ، وهم المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، اكثر مرحا من المألوف . وكان يبدو على سجن « بيستر » باسره انه يضحك ويغنى ، وانه يلهو ويرقص

وبقيت وحدى صامتا وسط كل هذه الضوضاء ، ساكنا لا أبدى حراكا وسط هـذه الحركة الدائبة . كنت اصغى فحسب ، اصغى فى يقظة وانتباه وقد تملكتنى الدهشة

ومر احد السجانين فخاطرت بندائه ، وسالته عما اذا كان هناك عيد فى السجن ، فاجابنى الرجل قائلا : « انه عيد اذا شئت ! فاليوم موعد تقييد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة بالحديد ، أولئك الذين يجب أن يرحلوا غدا الى سجن «طولون» أتريد أن تشاهد ذلك ؟ إنه سوف يسليك »

وكان هذا المنظر فى الواقع ــ مهما بلغ من بشاعته ــ فرصة طيبة لانسان سجين بمفرده فى زنزانة ، فتقبلت هذه التسلية

واتخذ السجان الاحتياطات المعتادة كى يطمئن من ناحيتى ، ثم اصطحبنى الى زنزانة صغيرة خالية ليس بها اثاث على الاطلاق ، ولها نافذة مسورة بقضبان من حديد ، ولكنها نافذة بمعنى الكلمة ، على قدر من الارتفاع يسمح للمرء بان يتكىء على حافتها ، وان يرى السماء من خلالها بالفعل

وقال لى السجان : « حسنا .. من هنا سوف ترى وتسمع ، وسوف تكون وحدك فى مقصورتك هذه وكأنك ملك ! »

ثم خرج الرجل بعد أن أغلق على باب الزنزانة بالمفاتيح والاقفال والمزاليج

وكانت تلك النافذة تطل على فناء مربع الشكل ، فسيح الى حد معقول ، يحيط به من الجهات الاربع بناء كبير من الحجر مؤلف من ستة طوابق كأنه جدار ضخم . وليس ثمة ما هو اكثر زراية وعريا واشد ايذاء للعين من هذه الواجهة الرباعية ذات النوافذ العديدة المسورة بالحديد ، التى التصقت بها ــ من اسفل البناء الى اعلاه ــ مجموعة كبيرة من الوجوه الشاحبة الضامرة ، قد تكدس بعضها فوق بعض كأنها احجار فى جدار ، يحيط بها جميعا ــ ان صح هذا التعبير ــ اطار من قضبان النوافذ الحديدية . كان هؤلاء هم السجناء ، قد اخذوا يشاهدون هذا الحفل ، فى انتظار ادوارهم حين تحين

اصبحوا هم الممثلين . ان المرء ليخيل اليه انهم ارواح معذبة من وراء نوافذ من حديد تطل على جهنم

كانوا ينظرون جميعا فى صمت الى الفناء الذى كان لا يزال خاليا الى تلك اللحظة . انهم كانوا ينتظرون . وهنا وهناك ، كانت بعض الأعين الحية الثاقبة تلمع كأنها نقط من النار بين تلك الوجوه الحزينة المنطفئة

ان « مربع السجون » الذى يحيط بذلك الفناء ليس مقفلا من جميع نواحيه ، فأحد اضلاعه الاربعة (الضلع الذى يطل على جهة الشرق) مقطوع عند وسطه تقريبا ولا يتصل بالضلع الذى يجاوره الا بسور من حديد ، يطل على فناء ثان أصغر مساحة من الفناء الاول ، ومحاط مثله بالجدران والابراج الصغيرة السوداء

ومن حول الفناء الرئيسى ، توجد مقاعد من الحجر ظهورها الى الجدار الضخم ، ويقوم فى وسطه عامود من الحديد مثنى من اعلى ليعلق به المصباح

وما كادت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة ظهرا ، حتى فتح على حين فجأة باب كبير مرتفع يكمن وراء تجويف فى البناء ، وظهرت عربة « كارو » يحرسها نفر من الجنود بدت عليهم القذارة والوجل ، يرتدون زيا ازرق ، وعلى اكتافهم شارات حمراء ، وسيور صفراء ، من التى تعلق فيها البنادق . ودخلت هذه العربة الفناء فى تثاقل محدثة صوتا حديديا . كانت تلك هى عربة السجانين قد جاءوا ومعهم

وفى تلك اللحظة عينها ، وكما لو كان الصوت الصادر من العربة قد ايقظ كل اصوات السجن ، ضج المتفرجون من النوافذ بصيحات المرح والأغانى ، وبالتهديد والسب والشتائم المختلطة بقهقهة عالية ، وضحكات سماعها يؤلم الآذان ، وهم الذين كانوا الى تلك اللحظة صامتين لا يتحركون ، كانت وجوههم تبدو كانها وجوه الشياطين ، وقد بدت مكفهرة مكشرة عن انيابها ، وبرزت قبضات ايديهم من خلال قضبان النوافذ ، وارتفعت كل الاصوات ، ولمعت كل الأعين ، فروعتنى رؤية كل ذلك الشرر وهو يتطاير من خلال هذا الرماد

ومع ذلك ، فقد شرع عمال السجن ، الذين كنت اميز من بينهم عددا من الفضوليين ، كانوا قد قدموا من باريس ، نظرا لما كان باديا عليهم من الرعب ونظافة الهندام ، وشرع عمال السجن هؤلاء فى تأدية عملهم فى هدوء ، فصعد احدهم فوق العربة والقى الى رفاقه بالأغلال الحديدية ، واطواق السفر ، ورزم السراويل المصنوعة من التيل الرخيص . ثم قسم العمال العمل فيما بينهم ، فذهب فريق منهم الى ركن من اركان الفناء ليبسطوا فيه السلاسل الطويلة التى كانوا يسمونها فى لغتهم « الدوبارة » ، اما الآخرون فقد بسطوا الاقمشة والقمصان والسراويل على « البلاط » ، بينما كان اكثرهم فراسة يفحصون الاطواق الحديدية المخصصة لاقدام السجناء ، تحت مراقبة قائدهم وهو شيخ بدين ، ثم يمتحنون صلابتها

بحكها فى البلاط حتى يتطاير منها الشرر

وكان هذا كله يجرى بينما كان السجناء يصفقون فى سخرية واستهزاء ، ولم يكن يطغى على اصواتهم الا ضحكات صاخبة صادرة من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، الذين كان ذلك بعد من اجلهم ، وهم يقفون على مرأى منا عند تقاطع السجن العتيق الذى يطل على الفناء الصغير

وما ان تمت هذه الاستعدادات حتى جاء رجل فى ثياب موشاة بالفضة كانوا يدعونه « السيد المفتش » ، واعطى امرا الى مامور السجن . وما هى الا لحظة حتى لفظ بابان منخفضان و ثلاثة عددا ضخما من الرجال دفعة واحدة ، وامتلأ الفناء بكتل كالسحاب من السجناء البشعين المهلهلين وهم يصيحون ويزأرون . كان هؤلاء هم المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة !

وتضاعف الفرح فى النوافذ لدى دخول هؤلاء ، وحيا السجناء بعضهم – وهم الاسماء الكبيرة فى الليمان – بالتصفيق والتهليل ، فكان هؤلاء يتقبلون ذلك منهم فى نوع من التواضع الممزوج بالفخر ، وكان اكثرهم يلبسون فوق رءوسهم قبعات غريبة الشكل كانوا قد صنعوها بايديهم من قش الزنزانة ، كى تلفت الانظار الى رءوسهم فى المدن التى سوف يمرون بها . وكان التصفيق لهؤلاء بالذات اكثر شدة وحماسا ، بل ان احدهم بصفة خاصة – وهو شاب فى السابعة عشرة كان وجهه شبيها بوجه فتاة – قد اثار مظاهر الحماسة والانفعال وهو خارج من زنزانته حيث احتجز منذ ثمانية ايام ، وكان قد صنع بنفسه من قش زنزانته رداء كان

يغطيه من رأسه الى قدميه ، فدلف الى الفناء وهو يلف ويدور حول نفسه فى خفة لا تحاكيها الا خفة ثعبان ، فثارت بسببه عاصفة مجنونة من التصفيق ، ومن صيحات السرور .
وكان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يردون على ذلك من ابراجهم ، فكان هذا التجاوب فى المشاعر وتبادل المرح بين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الراحلين لتنفيذ العقوبة وبين زملائهم الذين ينتظرون دورهم شيئا مرعبا حقا . ومهما كان المجتمع هنا يمثله السجانون والفضوليون الذين استولى عليهم الذعر ، فان الجريمة كانت تتحداه فى تلك اللحظة وجها لوجه ، وكانت تجعل من هذه العقوبة المفزعة عيدا عائليا

وكلما وصل سجناء آخرون ، كانوا يدفعونهم بين صفين كثيفين من الحراس الى الفناء الصغير المحوط بالاسوار الحديدية حيث كان ينتظرهم الاطباء . وهناك ، بذل كل واحد منهم جهدا اخيرا ليتجنب السفر متعللا بعذر من الأعذار الصحية : فهو اما مريض بعينيه ، واما مقطوع اليد ، واما انه يعرج بساقه ، لكن الاطباء كانوا يجدونهم فى الاغلب الاعم صالحين للميدان ، فكان كل منهم يرضخ عندئذ فى غير مبالاة ، متناسيا فى دقائق قليلة عجزه المزعوم الذى كان مصابا به طول حياته

ثم فتح باب الفناء الصغير مرة أخرى وأخذ أحد الحراس ينادى بأسماء السجناء مرتبة حسب الحروف الأبجدية ، فخرج المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة عندئذ واحدا واحدا ، وذهب كل منهم لينتظم واقفا فى الصف فى ركن الفناء الكبير

الى جوار زميل له ،جمعته به صدفة الحرف الذى يبدأ اسمه به . وهكذا كان كل واحد منهم يرى نفسه أمام نفسه ، وكان كل واحد منهم يحمل قيده بنفسه جنبا الى جنب مع شخص مجهول ، واذا شاءت المصادفة أن يجد أحدهم صديقا له فيهم ، فان القيد الحديدى كان يحول بينهما ويفصله عنه فصلا لاسبيل الى الفكاك منه ، فكان ذلك أبلغ الشقاء وأمره !

وبعد أن خرج نحو ثلاثين سجينا أقفل الباب كما كان ، ثم صفهم أحد الجنود صفا بعصا فى يده ، والقى أمام كل واحد منهم بقميص وسترة وسروال من قماش رخيص ، ثم اشار بيده اشارة خاصة فشرعوا جميعا فى خلع ملابسهم ، غير أن حادثا غير منتظر وقع عندئذ ، وكأنه كان قد تعمد اختيار تلك اللحظة بالذات ليحيل هذا الاذلال الى عذاب

كان الطقس الى تلك اللحظة جميلا نوعا ما ، ولئن كان نسيم شهر أكتوبر يشيع البرودة فى الجو ، فانه كان يشق من آن لآخر فى غيوم السماء الرمادية اللون ثغرة كان يسقط منها شعاع من الشمس . ولكن ما كاد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ينزعون من على أجسادهم أسمال السجن البالية ويتقدمون عراة ليفحصهم الحراس المتشككون على مرأى من أعين الفضوليين الغرباء الذين كانوا يدورون من حولهم ليفحصوا أكتافهم ، حتى أظلمت السماء فجأة وهطل وابل من أمطار الخريف التى تشبه السيل ، فغمر الفناء المربع بالماء البارد وأغرق رءوس السجناء الحاسرة وأوصالهم العارية وملابسهم

التعسة الملقاة على الأرض

وفى طرفة عين ، كان مدخل الفناء قد خلا تمـــاما من كل شخص لم يكن سـجانا أو سـجينا ، وهرع فضـوليو باريس ليحتموا تحت مداخل الأبواب

ومع ذلك ، فقد استمر المطر ينهمر مدرارا ، ولم نكن نرى فى الفناء سوى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وقد وقفوا عراة يتصبب الماء من فوق جلودهم على أرض الفناء الغارقةفى الماء .. ان صمتا حزينا قد أعقب تحديهم الصـاخب فوقفوا يرتجفون ، وأخذت أسنانهم تصطك وسيقانهم الناحلة وركباتهم ذات العقد ترتعد فتصطدم الواحدة بالأخرى . وكان منظرهم يستوجب الشفقة حقا ، وهم يسترون أجزاء أجسادهم العارية الزرقاء بهذه القمصان المبتلة وتلك الستر والسراويل التى يقطر منها الماء . لقد كان العرى خيرا لهم !

ان واحدا منهم ، واحدا فقط ، وهو شيخ مسن ، كان قد احتفظ بشيء من المرح ، فصـاح قائلا وهو يجفف جسمه بقميصه المبتل : « ان هذا لم يكن ضمن البرنامج ! » ثم أغرق فى الضحك ، وهو يلوح بقبضة يده نحو السماء

وبعد أن لبس السجناء ثياب السفر ، اقتادهم حراسهم فى مجموعات تضم عشرين أو ثلاثين شخصا الى ركن مظلل من الفناء حيث كانت القيود الممدودة على الارض فى انتظارهم . وكانت تلك القيود عبارة عن سلاسل طويلة غليظة تقطعها أفقيا وعلى بعد قدمين بانتظام سلاسل أخرى قصيرة قد ربط فى طرفيها طوق من حديد مربع الشكل يفتح عن طريق « مفصلة » فى أحد جوانبه ، ويقفل من الجانب المقابل « ببرشمته » بالحديد ويظل هذا الطوق الحديدى حول رقبة السجين طول مدة الرحلة وعندما نشرت كل هذه السلاسل على الارض بدت لى كأنها هيكل عظمى لسمكة ضخمة

وأجلس السجناء فى الوحل على الارض الغارقة فى المـاء وبعد ان قيست الاطواق على أعناقهم ، جاء حـدادان من السجانين مزودان بسندانين متنقلين فبرشموا لهم تلك الاطواق « على البارد » بطرقها طرقا شديدا بمطرقة من حديد . فكانت هذه لحظة رهيبة اصفر لها وجه أكثر السجناء شجاعة ! لقد كانت كل ضربة من المطرقة على السندان المسنود الى كتف السجين من ناحية ظهره تجعل ذقن المسكين تقفز الى الامام ، وكانت أدنى حركة يمكن ان يأتى بها السجين من الامام الى الخلف كفيلة بأن تطيح بجمجمته كأنها قشرة « عين جمل ! »

وما أن تمت هذه العملية حتى وجم السـجناء وأظلمت وجوههم ، ولم يعد يسـمع الا صـليل السلاسل وصوت مكتوم كان يتردد بين حين وآخر ، صوت عصى السجانين على أجسام من يبدون تمنعا أو مقاومة .. لقد كان بعض هـؤلاء السجناء يبكون ، وكان الشيوخ منهم يرتعدون وهم يعضون على نواجذهم ، ووقفت أنا فى نافذة الزنزانة أطل على الفناء وأنظر فى رعب الى كل تلك الصور المحـزنة فى اطارهـا الحـديدى

وهكذا ، فان زيارة السجانين تلت زيارة الطبيب ، واعقب زيارة السجانين تركيب الاطواق الحديدية حول رقاب السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .. لقد كان مشهدا مؤلفا من ثلاثة فصول !

وظهر شعاع الشمس من جديد فبدا كأنه قد أشعل كل هذه العقول ، اذ نهض السجناء معا دفعة واحدة ، كما لو كانوا قد تحركوا بفعل الحمى ، وتشابكت أيدى سجناء السلاسل الخمس الطويلة وانتظموا فجاة فى حلقة ضخمة حول عامود المصباح الذى يتوسط الفناء ، واخذوا يدورون من حوله على نحو يتعب البصر وهم ينشدون احدى أغانى الليمان فى لغة عامية دارجة ، وفى نغمة تارة شاكية باكية ، وأخرى صاخبة مرحة . وكنت أسمع بين حين وآخر صيحات جافة وضحكات ممزقة لاهثة تمتزج بكلمات هذه الاغنية الغريبة ، ثم تلا ذلك تصفيق حاد مجنون ، بينما كانت القيود الحديدية تصلصل ويصطك بعضها ببعض فتحدث نغما كان بمثابة الموسيقى لتلك الاغنية ، وهى موسيقى كانت أشد خشونة من ضوضائهم ! ولو بحث فى مخيلتى عن صورة للعفاريت فلن أستطيع ان أتخيلها أحسن ولا أسوأ من هذه الصورة !

ثم احضر الى الفناء طست كبير ، وقطع السجانون على السجناء رقصهم بضربات من عصيهم ، ثم ساقوهم الى هذا الطست حيث كان المرء يرى شيئا طافيا كالعشب — لست

ادرى ما هو — فى سائل ساخن كان يتصاعد منه البخار لست أدرى ما هو كذلك ، فأخذوا يأكلون

وبعد أن فرغ السجناء من أكلهم ألقوا بما تبقى من طعامهم هذا ومن خبزهم الاسود على بلاط الفناء ثم عادوا الى الرقص والغناء من جديد ، ويبدو انهم يتركون لهم شيئا من هذه الحرية يوم يكبلون فى الاصفاد وكذلك فى الليلة التى تليها

ومكثت أرقب هذا المشهد الغريب فى يقظة كبيرة ، واستطلاع منهوم ، وانفعال عميق ، حتى أننى نسيت نفسى تماما ! ان شعورا جارفا من الشفقة كان يجتاحنى فيمزق احشائى ، وكانت ضحكاتهم تملأ عينى بالدموع

وفجاة ، وخلال هذا الحلم العميق الذى كنت مستغرقا فيه رأيت الحلقة الضخمة تكف عن الصياح والدوران ، وساد صمت عميق ثم فجأة اتجهت أنظارهم الى النافذة التى كنت أشغلها ، وصاحوا جميعا ، وهم يشيرون الى بأصابعهم قائلين : « المحكوم عليه بالاعدام ! .. المحكوم عليه بالاعدام ! » .. وقد غمرهم فى تلك اللحظة مرح مضاعف ..

وتصلبت فى مكانى متحجرا ! فقد كنت أجهل من اين عرفونى وكيف تعرفوا على !

وصاحوا بى قائلين ، وهم يطلقون ضحكات ساخرة بشعة: « عمت صباحا ! .. طاب مساؤك ! » .. ونظر الى واحد من بينهم ، وهو شاب يافع كان أصغر المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة سنا ، وكان وجهه خشنا لامعا جامد الملامح ، نظر الى

نظرة تفيض بالحسد ، وهو يقول : « انه لسعيد الحظ ! فسوف يمحى من العالم ! وداعا أيها الزميل ! »

لست بمستطيع ان اعبر عما كان يدور فى نفسى .. اننى كنت فى الواقع زميلا لهم ، فساحة الاعدام هى شقيقة لليمان « طولون » ، بل انى كنت فى درك أسفل منهم ! .. انهم كانوا يشرفوننى ..

واجتاحتنى رجفة عاتية .. نعم ، انى زميل لهم ومن الممكن ان أصير ــ أنا نفسى ــ بعد أيام مشهدا يملأ عليهم أبصارهم !

وكنت قد بقيت فى النافذة بلا حراك وقد شلت أوصالى وتملكنى الذهول . ولكننى حينما رايت سجناء السلاسل الخمس الكبرى يتقدمون الى الامام ثم يندفعون نحوى وهم يوجهون الى كلمات ودية جهنمية ، وحينما سمعت ضجيج قيودهم الفظيع يختلط بصيحاتهم المجلجلة ، وبوقع خطواتهم تحت نافذتى عند أسفل الجدار ، خيل الى أن هذه الشرذمة من الشياطين كانت تتسلق البناء الى زنزانتى التعسة ، وأطلقت صيحة مروعة ثم اندفعت نحو الباب وألقيت نفسى عليه بكل قواى كى أحطمه ، لكنى لم أجد سبيلا الى الفرار ، فقد كان الباب مقفلا من الخارج بالمزلاج .. وعدت أحاول اقتحام الباب ، وأنا أنادى وأصرخ فى جنون ، فبدا لى وقتئذ أنى كنت أسمع أصوات السجناء المخيفة تقترب منى أكثر فأكثر ، وظننت أنى أرى رءوسهم المنكرة تبدو بسرعة على حافة نافذتى ، فصحت صيحة فزع أخرى مدوية ثم سقطت مغشيا على .

اللحن الحزين

وعندما افقت من غشيتى كان الليل قد اقبل ، ووجدت نفسى راقدا فوق « برش » ، وكان هناك مصباح ترتجف ذبالته قرب السقف مكننى من ان ارى « ابراشا » أخرى مرصوصة الى جوار « برشى » عن يمين ، وعن شمال ، فادركت انهم نقلونى الى مستشفى السجن

وظللت مستيقظا لحظات ، ولكن بلا تفكير وبلا ذاكرة وقد احسست بسعادة غامرة لانى نائم على سرير . وليس ثمة شك فى ان سرير المستشفى هذا كان خليقا فى اى ظرف آخر بان يجعلنى افر منه شفقة واشمئزازا ، غير انى كنت قد اصبحت شخصا آخر .. كانت ملاءة هذا السرير رمادية اللون خشنة الملمس ، وكان الغطاء ممزقا ، وكنت اشعر بقش الزنزانة من خلال تلك « المرتبة » .. ولكن هذا لم يكن يهم ! .. فقد كان فى وسعى ان ابسط اطرافى كما يروق لى فوق هذه الملاءة الرخيصة وتحت هذا الغطاء مهما بلغ من الرقة ، وكنت احس رويدا رويدا بزوال هذا البرد المروع الذى كان ينفذ حتى نخاع العظام ، والذى كنت قد الفته فى الزنزانة ، فاستسلمت مرة اخرى للنوم

واستيقظت من نومى على صوت جلبة كبيرة ، وكان الوقت فجرا . كان الصوت ياتينى من الخارج . وكان سريرى

بجوار النافذة ، فنهضت وجلست فى الفراش لاستجلى مصدر هذا الصوت ..

كانت النافذة تطل على الفناء الكبير فى سجن « بيستر » ، وكان هذا الفناء يعج بالناس حيث كان صفان من جنود السجن القدامى الاشداء يجدان مشقة كبيرة فى الاحتفاظ بممر مفتوح عبر الفناء بين هذه الكتل من الجماهير ، وبين هذين الصفين من الجنود كانت خمس عربات « كارو » محملة بالرجال تتقدم فى بطء وهى تتعثر عند كل « بلاطة » .. كان هؤلاء الرجال هم السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الذين تقرر رحيلهم

كانت هذه العربات مكشوفة ، وكانت كل واحدة منها محملة بمجموعة من السجناء تربطهم احدى السلاسل الطويلة الخمس ، وقد جلسوا على جانبيها واتكأ بعضهم على بعض ، تفصل بينهم السلسلة المشتركة التى كانت تمتد بطول العربة ، والتى كان يقف عند آخرها على قيد خطوة من سلمها جندى يشهر بندقية معدة للاطلاق . وكانت صلصلة الاصفاد الحديدية تسمع عند كل هزة من هزات العربة ، كما كانت رءوس السجناء ترى وهى تقفز ، وسيقانهم المعلقة تتأرجح هنا وهناك

وكان ثمة رذاذ نافذ يثلج الهواء ويجعل سراويل السجناء الرمادية المصنوعة من التيل والتى كانت قد اسودت ، يجعلها تلتصق بركباتهم ، وكان ماء المطر يتصبب من لحاهم الطويلة ومن شعرهم القصير ويغمر وجوههم التى صارت بنفسجية اللون

وكنت اراهم وهم يرتجفون وقد اخذت اسنانهم تصطك من البرد والغضب

وكان هؤلاء السجناء من جهة اخرى عاجزين عن الحركة ، اذ أن المرء عندما يربط بسلسلة كهذه فانه لايصبح الا جزءا من تلك الكتلة القبيحة التى يسمونها « الكردون » والتى تتحرك كانها رجل واحد .. ان الذكاء لابد عندئذ ان ينمحى ، فطوق الايمان الملفوف حول العنق يخنق العقل ويحكم عليه بالموت ، اما الحيوان نفسه (١) فيجب الا تكون له حاجات أو شهية للطعام الا فى ساعات محددة

وهكذا ، فان السجناء كانوا لايستطيعون حركة وقد اصبحوا شبه عراة ، ورءوسهم حاسرة وارجلهم معلقة فى الهواء . كانوا يبدءون ، على هذا النحو ، سفرهم الذى يستغرق خمسة وعشرين يوما ، وهم محمولون على نفس العربات ويرتدون نفس الثياب ، تحت وهج الشمس المحرقة وتحت أمطار نوفمبر الباردة ، حتى ليبدو ان الناس كانوا يريدون ان تشاركهم السماء مناصفة القيام بعملهم كجلادين !

وكان قد نشب بين هذا الجمهور وبين العربات حوار رهيب : سب من ناحية ، وتحد من الناحية الاخرى ، وشكاوى وشتائم من الجانبين .. ولكن ماهى الا اشارة صدرت من القائد (٢) حتى

(١) يعنى الناحية الحيوانية فى السجين اى البدن ومطالبه
(٢) الكابتن قائد حرس السجن

رأيت وابلا من ضربات العصى التى كان يحملها الجنود ينهال على العربات الخمس فيغرق اكتاف السجناء او رءوسهم بلا تمييز ، فعاد كل شىء الى الهدوء ، ولكنه كان ذلك الهدوء الظاهرى الذى يسمونه نظاما ، اذ كانت أعين هؤلاء التعساء تفيض بالانتقام ، وكانت أيديهم تتقلص على ركبهم فى عنف ظاهر

واختفت العربات « الكارو » الخمس ، التى كان يحرسها فرسان البوليس وجنود السجون المشاة ، واحدة بعد أخرى تحت ذلك الباب المرتفع ذى «القبوة» ، باب سجن « بيستر» ، وتبعتها عربة سادسة تكدست عليها المواقد والأوانى النحاسية والسلاسل الاحتياطية (١) ·· وكان نفر من السجانين قد تأخروا قليلا فى المقصف (٢) فخرجوا مسرعين ليلحقوا بالعربات

ثم انفض الجمهور وتلاشى هذا المنظر كأنه رؤيا أو خيال عابر ، وأخذت الجلبة التى كانت تصدر عن تلك العربات الثقيلة تتضاءل شيئا فشيئا ويضعف معها وقع سنابك الخيل على طريق « فونتينبلو » المرصوف ، وقرقعة السياط ، وصليل السلاسل ، وصيحات الجماهير الذين كانوا يتمنون للسجناء فى سفرهم كل المصائب والنكبات

---

(١) سلاسل واطواق حديدية اضافية وقطع غيار للطوارىء

(٢) « كانتين » السجن

ومع ذلك ، فقد كان هذا بالنسبة اليهم مجرد بدايةفحسب!

فماذا كان يقول لى المحامى اذن ؟ ·· الأشغال الشاقة المؤبدة ! ·· آه ! ان الموت خير عندى الف مرة ! انى أفضل المشنقة على الليمان ، والفناء على جهنم (١) ، وأوثر أن أسلم رقبتى لسكين الدكتور « جيوتان » على أن أسلمها لطوق السجان !

آه ! الاشغال الشاقة المؤبدة ؟ ! ·· رحماك أيتها السماء العادلة !

■

لم أكن مريضا لسوء الحظ ، واضطررت فى اليوم التالى الى الخروج من مستشفى السجن لتتلقفنى الزنزانة مرة ثانية

اننى لست مريضا ! هذا حق ، فأنا شاب قوى ، أستمتع بصحة جيدة ويجرى الدم فى عروقى فى حرية ، وكل أعضاء جسمى تطيع سائر نزواتى ·· أنا قوى الجسم والروح ، وتكوينى يمكننى من أن أعيش طويلا ·· نعم ، ان هذا كله صحيح ·· ومع ذلك ، فانى مصاب بمرض آخر ، بمرض مميت من صنع يد الانسان

فمنذ أن خرجت من مستشفى السجن تملكتنى فكرة مؤلمة، فكرة سوف تورثنى الجنون ! فقد خطر ببالى أنى ربما استطعت الهرب لو أنهم تركونى فى هذا المستشفى ، فهؤلاء الأطباء

---

(١) يعنى المؤلف عذاب الليمان والاشغال الشاقة المؤبدة

والراهبات كان يبدو أنهم يعنون بأمرى ٠٠ اننى سوف أموت هكذا وأنا بعد شاب صغير السن ٠٠ سوف أموت مثل هـذه الميتة الشنعاء !

لقد بدا لى أنهم كانوا يرثون لحالى لكثرة ما كانوا يحومون حولى ويتزاحمون الى جوار سريرى ٠٠ آه ! صمتا أيها التعس! ٠٠ فهو مجرد حب استطلاع فحسب ٠٠ وفوق هذا ، فهؤلاء الاشخاص وان حاولوا انقاذى حقـا من الحمى ، فليس فى استطاعتهم أن ينقـذونى من حـكم الاعـدام ! ٠٠ ومع ذلك ، أفليس الأمر يسيرا عليهم للغاية ؟ مجرد باب يترك مفتوحا ! ماذا يضيرهم لو أنهم فعلوا ذلك ؟

ولكن واحسرتاه ! لم تعد أمامى فرصة الآن ٠٠ ان طلب الاستئناف الذى تقدمت به سوف يرفض لأن كل شيء قد سار طبقا لنص القانون ، فقد شهد الشهود شهادة كاملة ،وترافع المترافعون مرافعة جيدة ، وحكم القضاة حكما صحيحا ! اننى لا أعول على الاستئناف ، اللهم الا ٠٠ كلا ، كلا ٠٠ ان هـذا ضرب من الجنون ! ولم يعد ثمة أمل ! تطلب استئناف الحكم ليس الا حبلا يمسك بتلابيبك وأنت معلق فوق الهوة فتسمعه وهو ينآكل قليلا قليلا مع كل لحظة حتى ينقطع تماما ٠٠ انه لسكين المقصلة عندما تهوى على عنق المرء فى ستة أسابيع !

آه لو صدر عفو عنى ! ٠٠ عفو ؟ ! ٠٠ من ذا الذى سوف يصدره ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ ٠٠ من المحال أن يصدر العفو عنى، الى ذلك عبرة للناس ، وضرب مثل .. كما يقولون

لم تعد هناك أمامى سوى ثلاث خطوات أخطوها ، ثلاث فحسب : سجن « بيستر » ٠٠ ثم سجن « الكونسيير جورى » ٠٠ وأخيرا « ساحة الاعدام !

□

وكنت قد جلست فى الشمس بجوار النـافذة خـلال الساعات القليلة التى قضيتها فى المستشفى ٠٠ ان الشمس قد عادت الى الظهور ، أو على الأقل ، كنت أتلقى من أشعتها كل ما كانت تسمح لى به منها قضبان النافذة الحديديه

جلست هناك وقد وضعت رأسى الثقيل المحموم بين يدى اللتين كانتا لاتقويان على حمله ، واسـندت مرفقى الى ركبتى وقدمى الى قضبان مقعدى ، لأن الانهاك كان قد بلغ منى مبلغا جعلنى انحنى وانثنى على نفسى كما لو كنت جسما لم تعد فى اوصاله عظام ولا فى لحمه عضلات

وكانت رائحة السجن التى تزكم الانوف تخنقنى أكثر من أى وقت مضى ، وكانت اصوات كل هؤلاء السجناء المختلطة بصليل سـلاسلهم لاتزال تطن فى اذنى ، وكنت أقاسى كثيرا كبيرا فى سجن « بيستر » ، حتى انه كان يبدو لى أن الله فى عدله ورحمته سوف تأخذه الشـفقة بى فيرسـل الى طائرا صغيرا على الاقل ليغرد هنا أمامى على حافة هـذا السـقف الاردوازى المنحدر

ولست أدرى ان كان الله الرحيم هو الذى استجاب عندئذ لدعائى او انه الشيطان الرجيم ، فقد سمعت فى نفس اللحظـة

تقريبا صوتا يرتفع تحت نافذتي ولكنه لم يكن صوتا لطائر ، وانما كان أجمل من ذلك بكثير .. كان صوتا نقيا ، صوتا نضرا شجيا لفتاة في الخامسة عشرة .. فرفعت راسي فجاة كانسان ادركه الفزع ، واخذت استمع في نهم الى الاغنية التي كانت ترددها الصبية في نغم بطيء حزين كانه هديل الحمام .. فجاءني صوتها ينوح قائلا :

كان ذلك في شارع « ماي » ..
حيث اعتدى على قهرا ثلاثة اشقياء ..
ثلاثة ملاعين هجموا على ..

ولم استطع ان اعبر عن مدى مرارة الصدمة التي احسست بها في تلك اللحظة .. واستطرد الصوت يقول :

لقد هجموا على وطرحوني ارضا
ومر شاب من حينا مصادفة
فقلت له : انني في محنة ..
فبلغ ذلك لفتيان حينا الشجعان !
فقال لي : « اني هززت شجرة البلوط
ونزعت منها كثيرا من الاغصان »
فأوسعهم ضربا حتى تركوني
وفررت وحذائي ممزق ، وكذلك ملابسي
لسوف أرقص مع هذا الفتى في يوم العيد

ولم يسبق لي أن سمعت هذه الأغنية من قبل ، وكنت لا استطيع ان أسمع المزيد من كلماتها التي كانت تحمل بين طياتها شكوى مفهومة وغامضة معا .. كما غنت الفتاة كذلك اغنية تقص شجارا وقع بين مجرم وبين رجال البوليس ، وتتحدث عن لص يقابل شخصا ويرسله الى زوجته بهذه الرسالة الرهيبة : « اني قتلت رجلا وقبض على » ، واغنية أخرى (١) جاء بها : ان سيدة ذهبت الى قصر « فرساي » لتشكو مجرما الى الملك ، وان صاحب الجلالة قد ثار لذلك ، وقال متوعدا المذنب انه : « سيجعله يرقص دون ان تكون هناك « ارضية » تحت قدميه ! »

كانت الصبية تردد كل تلك الاغاني في نغمة حلوة تفيض بالرقة والحنان ، وفي صوت لم تسمع أذن امرىء قط اشجى ولا اعذب منه ! حتى انني جمدت في مكاني محطما مبهوتا تغمرني الحسرة والاسف ! فقد كانت كل تلك الكلمات الفظيعة المنبعثة من هذا الفم النضر الجميل شيئا يبعث على الاشمئزاز حقا .. كانت تبدو وكانها لعاب قوقعة فوق وردة يانعة !

وما انا بمستطيع ان اصور ما كنت اشعر به وقتئذ ، لقد كنت مجروحا ، ومسرورا في آن واحد ! ان لهجة الكهف والليمان ، هذه اللغة الدامية الفظة ذات الرنة الكئيبة والطابع العامي (٢) التي امتزجت بصوت فتاة يافعة في فترة انتقال لطيفة بين صوت طفلة وصوت امراة ، كل تلك الالفاظ رديئة

---

(١) ترجمنا مضمون هذه الاغنية بمعناها فحسب لتعذر نظمها في أبيات موزونة ومقفاة كما وردت في النص الفرنسي

(٢) اللهجة الشائعة بين الدهماء والطبقات المنحطة أو الجاهلة

الصياغة كانت الفتاة تغنيها ، وترتلها ، وتنظمها دررا ثمينة ،

آه ! ما اشد عار السجن وشناعته ! ان فيه لسما يلطخ كل شيء . كل شيء فيه يذبل ، حتى اغنية فتاة لا تتجاوز الخمسة عشر ربيعا .. اذا عثرت فيه على طير ، وجدت جناحه ملطخا بالوحل .. وان قطفت به زهرة وشممتها ، تاذيت من رائحتها البغيضة

آه لو كنت استطيع الفرار ، لجريت عندئذ خلال الحقول بكل ما اوتيت من قوة وعزم !

كلا ، فليس ينبغي ان اجرى وتشتد ، فذلك يلفت الانظار ويبعث على الريبة والشك ، بل ان الامر على العكس :

اذ يجب على ان أسير فى تؤدة وانا أغنى مرفوع الراس .. يجب ان احاول جاهدا ان احصل على قميص عتيق مفتوح أزرق اللون وبه رسوم حمراء ، فهذا يحكم التنكر ، اذ ان كل بائعى الخضر فى الضواحى يلبسون مثل ذلك

انى أعرف على مقربة من « أركوى » (١) أجمة من الاشجار بجوار مستنقع من المستنقعات حيث كنت أتردد مع رفاقى لصيد الضفادع فى يوم الخميس من كل اسبوع عندما كنت طالبا بالمدرسة الثانوية ، وسوف أختبىء هناك الى ان يهبط الظلام ، ثم استأنف سيرى تحت جنح الليل كى اذهب الى «فانسين» .. كلا ، كلا .. فسوف يحول النهر هناك بينى

(١) مكان فى ضواحى باريس

وبين المضى قدما ، سوف أيمم أذن شطر « ارباجون » — وسوف يكون من الاوفق أن اتجه ناحية « سان جرمان » ، ثم اذهب الى « الهافر » (١) واستقل اية سفينة الى انجلترا — ولكن ما جدوى كل ذلك ؟ اذلا أكاد اصل الى « لونجيمو » حتى يمر بى جندى من رجال البوليس ويطلب الى ان ابرز بطاقتى الشخصية ! .. اننى هالك لا محالة ! لقد ضعت !

آه ! يا لى من حالم بائس ! على اذن ان احطم الجدار اولا .. ان احطم الجدار الذى يسجننى وسمكه ثلاث اقدام !.. الموت يا الهى !.. الموت !

عندما افكر فى أنى اتيت الى هنا ، الى « بيستر » ، وانا غلام صغير لأرى البئر الكبيرة ... والمجانين آه ؟

□

وفيما انا عاكف على كتابة هذا كله ذوى نور مصباحى وطلع الفجر .. ثم دقت ساعة الكنيسة الصغيرة تعلن السادسة

ما معنى ذلك ؟ .. ان حارس زنزانتى النوبتجى دخل لتوه عندى وخلع قبعته ، ثم حيانى معتذرا عما سببه لى من ازعاج ، وطلب منى ان أعين له ما اريده طعاما لفطورى ، طلب منى هذا ، وهو يحاول جاهدا ان يكسب نبرات صوته الغليظ الخشن مسحة من الرقة والظرف

فاجتاحتنى رجفة عاتية ، وهمس فى اعماقى صوت يقول :

(١) ميناء فرنسى على بحر المانش

« ترى أيتم اليوم تنفيذ الحكم ؟ »

نعم .. انه اليوم !

لقد حضر مدير السجن بنفسه لزيارتي وسألني كيف يستطيع أن يرضيني وكيف يمكن ان يكون نافعا لى فى أى شيء ، وعبر لى عن امله فى الا تكون لدى اية شكوى منه او من مرءوسيه ، ثم سألني فى اهتمام عن صحتى ، وعن الحال التى قضيت فيها الليل .. وخاطبنى بقوله : « ياسيدى » وهو يغادر الزنزانة !

انه اليوم !

ان هذا السجان لا يعتقد أن لدى شكوى منه او من مرءوسيه .. انه على حق ، فسوف لا تنفعنى الشكوى .. انهم قد قاموا بواجبهم فحرسونى خير حراسة ، وفوق هذا ، فقد كانوا مؤدبين عند وصولى وعند رحيلى .. افلا ينبغى اذن أن اكون راضيا مسرورا ؟

انهذا السجان الطيبانما يمثل السجنمجسما ، بابتسامته الساذجة العذبة ، وكلماته الرقيقة اللطيفة ، وعينه التىتمتدح وتتجسس ، ويديه الضخمتين العريضتين .. ان سجن « بيستر » قد تقمص هذا الرجل .. كل شيء من حولى هو سجن بالنسبة الى ! انى اجد السجن فى جميع الصور والاشكال : اجده فى صورة الانسان كما اجده فى شكل القضبان أو فى المزاليج والاقفال .. فهذا الجدار سجن من الحجر ، وذاك الباب سجن من الخشب ، وهؤلاء الحراس سجن من لحم وعظم .. ان السجن كائن خفى رهيب شامل لا يتجزأ ، نصفه سكن ونصفه انسان ، وانا فريسته ، وهو يحيطنى بمخالبه ويحتضننى بكل جوارحه وثناياه ، فهو يعلق على جدرانه المبنية من الجرانيت ، ويقفل على باقفال من الحديد ، ويراقبنى بعينى السجان

آه ! يالى من بائس . ماذا سيحدث لى ؟ ماذا سيفعلون بى ؟

الكاهن

انني الان هادىء ، فقد انتهى كل شيء ، انتهى تمــاما .. لقد خرجت من دوامة القلق المرعبة التى كانت قد القتنى فيها زيارة الطبيب . ذلك انى اعترف بانى كنت لا أزال آمل ، اما الان ، والحمد لله ، فلم يعد ثمة امل لى

وهذا هو ما حدث منذ لحظة :

حينما دقت الســاعة معلنة الســادسة والنصف ـ بل ان ذلك كان فى الربع الاخير من هذا النصف ـ فتح باب زنزانتى من جديد ودلف اليها شيخ أشيب الشعر ، يرتدى «ردنجوتا» قاتم اللون . وفتح الرجل « الردنجوت » قليلا فرأيت ثيابه البيضاء ، « وياقته » الناصعة . لقد كان قسيسا

لم يكن هذا القسيس واعظ السجن ، وهذا أمر كئيب . وجلس الرجل قبالتى ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتســـامة عريضة ، ثم هز رأسه ورفع بصره الى الســـماء ، أعنى الى السقف ، سقف الزنزانة ! .. لقد فهمت !

وقال لى رجل الدين :

ـ أأنت على استعداد يابنى ؟

فاجبته قائلا فى صوت مختنق :

ـ لست مستعدا ولكننى « جاهز » !

ومع ذلك ، فقد غامت عيناى ، واضطرب بصرى ، ونضح من كل أعضاء جسمى عرق بارد غزير ، واحسست بصدغى يسخنان ، وامتلأت آذناى بالطنين

وكان الشيخ الطيب يتكلم ، بينما كنت أترنح على مقعدى كانسان نائم ، أو هذا هو على الأقل ما بدا لى فى تلك اللحظة ، واحسبنى اذكر انى رأيت شفتيه تتحركان ، كما رأيت بريق عينيه ، واهتزاز يديه

وفتح باب الزنزانة مرة أخرى ، فأخرجنى صرير المزاليج من ذهولى وقطع على الرجل حديثه ، ثم دخل سيد لم أره من قبل ، يرتدى ثيابا سوداء ومعه مدير السجن . وقدم الرجل نفسه الى ، وحيانى فى احترام عميق . وكانت ترتســـم على وجه الرجل مسحة من حزن « رسمي » مصطنع ، هو نفس الحزن الذى تراه على وجه اللحاد « الحانوتى » ومعاونيه ، وكان يمسك فى يده ورقة ملفوفة

وقال لى الرجل وهو يبتسم ابتسامة مؤدبة :

ـ سيدى .. انى « محضر » من قبل محكمة باريس الملكية، ويشرفنى أن أحمل لك رسالة من قبل السيد النائب العام

فاجبته قائلا بعد أن ذهب عنى أثر الهزة الاولى ، واستعدت حضور ذهنى كله :

ـ انه السيد النائب العام ذاته الذى طالب برأسى فى الحاح، وانه لشرف كبير لى ياســـيدى أن يكتب الى ، وآمل أن يثلج

موتى صدره ويدخل على نفسه أبلغ السرور ، اذ يشق على أن أعتقد أنه الح فى طلب موتى بحماس كبير فى الوقت الذى لن يهتم فيه بهذا الامر بعد الآن

لقد قلت هذا كله وسكت لحظة ، ثم استطردت أقول فى صوت ثابت النبرات : « اقرأ ما عندك اذن يا سيدى ! »

فأخذ « المحضر » يقرأ على رسالة طويلة ، وهو يتفنى فى نهاية كل سطر ، ويتردد فى وسط كل كلمة · كان ذلك رفضا للطلب الذى تقدمت به لاستئناف الحكم · وأضاف الرجل قائلا بعد أن فرغ من تلاوة رسالة النائب العام ، ودون أن يرفع بصره عن أوراقه المدموغة : « ان الحكم سينفذ اليوم فى ساحة الاعدام ، وسوف نرحل فى تمام الساعة السابعة والنصف الى سجن « لاكونسيير جورى » · هل لك أن تتفضل فتتبعنى يا سيدى العزيز ؟ »

وكنت لم أعد أنصت الى الرجل منذ وقت ليس بقصير · وكان مدير السجن يتبادل الحديث مع القسيس ، بينما ظلت عينا «المحضر » مثبتتين على أوراقه ، وكنت أنا الى جوار الباب الذى كان لايزال مواربا · آه ! أيها التعس ! هناك فى الدهليز أربعة حراس معهم بنادقهم !

واعاد « المحضر » سؤاله على وهو ينظر الى فى هذه المرة ، فأجبته قائلا :

ـ سأتبعك يا سيدى فى أى وقت تريد · انى رهن اشارتك !

فحيانى قائلا وهو يتهيأ للانصراف :

ـ سوف اتشرف بالحضور لاصطحابك معى بعد نصف ساعة

وانصرف الجميع عندئذ وتركونى وحدى

□

يا الهى ! أما من وسيلة للفرار ؟ أية وسيلة كانت ؟ يجب أن أهرب · هذا لابد منه ، وفى الحال ! من الابواب ، من النوافذ ، أو من خلال فتحات أخشاب السقف ، حتى لو كلفنى هذا أن أترك لحمى على هذه الالواح ! يا للغضب ! يا للشياطين ! يا للعنة ! لسوف تلزمنى أشهر بأكملها لنقب هذا الجدار ، ان كانت هناك آلات جيدة ، مع أنى لا أملك مسمارا واحدا ، ولم تعد أمامى حتى ساعة واحدة !

الفصل الثالث

الطريق إلى الموت

في سجن ((لاكونسبير جورى))

هأنذا قد نقلت كما قال « المحضر » ، غير أن الرحلة جديرة بأن تروى

كانت الساعة تدق السابعة والنصف عندما ظهر المحضر مرة أخرى على عتبة زنزانتى • وقـــال لى الرجل : « انى فى انتظارك ياسيدى »

يا للأسف ! انه كان ينتظرنى حقا ، وكان معه آخرون !

فنهضت من مكانى وخطوت خطوة واحدة ، فبدا لى لحظتها انى ساعجز عن أن أخطو خطوة أخرى لشدة ما كنت اشعر به من ثقل فى رأسى وخور فى ساقى ، ولكنى مع ذلك تمالكت نفسى ، وتابعت السير فى شىء من الارادة والثبات • والقيت نظرة أخيرة على سجن «بيستر» قبل أن أغادره ـ فقد كنت أحب زنزانتى هذه ـ ويؤسفنى انى تركتها خالية ومفتوحة ، ممـا أكسبها مظهرا غريبا !

انها لن تظل هكذا طويلا على كل حال ، فقـــد كان حاملو مفاتيح السجن يقولون انهم ينتظرون شخصا سوف ينزل فيها فى هذه الليلة ، وهو رجل محكوم عليه، كانت محكمة الجنايات بصدد النظر فى أمره فى هذه الساعة

ولحق بنا الواعظ فى نهاية الدهليز • وكان الرجل قد فرغ

للتو من تناول طعامه

وعند خروجى من الزنزانة ، امسك مدير السجن بيدى فى عطف ، وشدد على الحراسة باربعة جنود من حراس السـجن القدامى

وأمام باب مستشفى السجن ، صاح بى شـيخ يحتضر قائلا : « الى اللقاء ! »

وبلغنا الفناء واستنشقت الهواء ، فأراحنى هذا بعض الشىء ولم نمش طويلا ، اذ كانت هناك عربة تجرها جياد قوية واقفة فى الفناء الاول ٠٠ آه ! انها نفس العربة التى كانت قد نقلتنى الى هنا ٠ كانت من نوع العربات المستطيلة المكشوفة ،ومقسمة الى قسمين بقضبان من حديد ، تتقاطع على شكل شبكة شديدة الكثافة ، وكان لكل قسم من قسميها باب ، أحدهما فى مقدمة العربة ، والثانى فى مؤخرتها ٠ وكانت العربة باسرها شيئا بالغ القذارة ، أسود اللون حالكه ، ومغطى بالغبار ، الى حد أن عربة نقل الموتى كانت تبدو الى جوارها كأنها عربة لتتويج الملوك

وقبل أن أدفن فى هذا القبر ذى العجلتين ، ألقيت نظرة على الفناء ، نظرة انسان يائس ، كان يأمل بها أن تتداعى من أمامه الجدران ٠ كان الفناء وهو مكان صغير مزروع بالاشجار ، كان ممتلئا بالمتفرجين أكثر مما كان يوم تكبيل المحـكوم عليهم بالاشغال الشاقة بالاصفاد اذ كان الناس قد احتشدوا بسرعة مذهلة

وكان مطر الخريف يتساقط وقتئذ كما حـدث يوم رحيل السجناء المكبلين بالسلاسل ، وهو مطر دقيق بالغ البرودة ، لا يزال يهطل فى هذه الساعة التى اكتب فيها ، وسوف يستمر طول النهار دون شك ، وسوف يستمر كذلك حتى بعـد أن أرحل عن هذه الدنيا

وكانت الطرق مملوءة بالمياه « وبالمطبات » ، وكان الفناء غارقا فى الماء والوحل ، وخامرنى ساعتها شعور بالسرور لرؤية هذا الجمهور فى الوحل

وصعدنا الى العربة ، فركب المحضر مع أحد الحراس فى القسم الامامى منها وركبت أنا مع القسيس وحارس آخر فى المؤخرة، وكان معنا أربعة جنود على ظهور الخيل يحيطون بالعربة ،وهكذا كان هناك ثمانية رجال ـ اذا استثنينا سائق العربة ـ يحرسون رجلا واحدا

وفيما كنت اهم بالصعود الى العربة رأيت امرأة عجوزا ذات عينين رماديتين كانت تقـول : « انى أفضل هذا كثيرا على السلاسل ! »

انى افهم ذلك ، فهو منظر يحيط به المرء بنظرة واحدة ، يحيط به فى سهولة وسرعة اكثر مما يحيط بمنظر السلاسل ؛ وهو منظر جميل مثل هذا المنظر الاخير ، ولكنه اكثر منه راحة، وليس فيه ما يسليك ، اذ انه ليس هناك سوى رجل واحد ، وعلى هذا الرجل وحده يقع من الكوارث ما يعادل الكوارث التى تقع على كل المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة مجتمعين ، غـير أن

الشقاء فيه ليس موزعا بين كثرة من الناس ، وانما هو مركز ، كالخمر المركزة تكون اكثر لذة للشاربين

وتحركت العربة فند عنها صوت مكتوم وهى تمر من تحت قبوة الباب الكبير، ثم خرجت الى عرض الشارع ، فاغلق خلفها باب سجن « بيستر » الثقيل . وكنت احس فى ذهول بانى محمول كانسان فاقد الوعى ، لايستطيع أن يتحرك أو يصيح، ويشعر بأن اناسا يدفنونه ، وكان رنين الاجراس الصغيرة المعلقة فى رقاب الخيل يصل الى سمعى فى غير وضوح ، تلك الاجراس التى كانت تجلجل بطريقة منتظمة فى رقاب جياد العربة وكانها مصابة « بالزغطة » ، وكانت عجلات العربة المغطاة بالحديد تتخبط على الطرق المرصوف ، أو تحتك بصندوق العربة وهى تتنقل من « مطب » الى « مطب » ، محدثة صوتا يختلط بوقع سنابك الخيل التى تحيط بالعربة لحراستها، وقرقعة السوط الذى يحمله السائق ، كل ذلك كان يبدولى كأنه دوامة تحملنى وتلفنى فى طياتها

ومن خلال قضبان نافذة صغيرة فى العربة كانت مفتوحة أمامى ، كانت عيناى مثبتتين بصورة آلية على كلمات محفورة بأحرف كبيرة فى الجدار فوق الباب الرئيسى لسجن «بيستر» « ملجأ الشيخوخة » . وكنت اقول فى نفسى : عجبا ! يبدو أن هناك اناسا يشيخون هنا !

وكما يفعل المرء بين اليقظة والنوم ، أخذت أقلب هذه الفكرة على كل جوانبها فى نفسى الخامدة من الالم، وفجاة، تغير

المنظر الذى كنت اراه من خلال تلك الطاقة الصغيرة فى اللحظة التى انتقلت فيها العربة من الشارع العريض الى الطريق الرئيسى ، واخذت أبراج كنيسة « نوتردام » تبدو لعينى باهتة زرقاء فى ضباب باريس من خلال ذلك المنفذ الضيق ، فتغيرت كذلك وجهة نظرى على الفور . ذلك انى كنت قد اصبحت آلة مثل هذه العربة . واعقبت فكرة سجن « بيستر » فكرة ابراج « نوتردام » ، فقلت فى نفسى وانا ابتسم فى غباء : ان الذين يكونون فى أعلى البرج حيث يوجد العلم سوف يرون مرور العربة على صورة اوضح

واظن ان القسيس قد استانف حديثه معى فى تلك اللحظة بالذات ، فتركته يتكلم وانا أستمع اليه فى صبر ، اذ كان يطن فى اذنى هدير عجلات العربة ، مختلطا بوقع سنابك الخيل ، وقرقعة السوط ، وكان هذا الصوت الاخير صوتا اضافيا

وجلست أنصت فى صمت الى وقع هذا الكلام الذى كان يطرق أذنى على وتيرة واحدة ، كأنه خرير ماء النافورة ، فقد كان كلامه يزيد خواطرى خمولا على خمول ، وتمر الفاظه من امامى متنوعة دائما ولكنها دائما نفس الشىء ، شأنها شأن الاشجار المرصوصة على جانبى الطريق العريض، عندما هزنى فجاة صوت « المحضر » الموجز المتقطع — وكان جالسا فى المقدمة — اذ جاءنى يقول فى لهجة تكاد تفيض مرحا : « حسنا يا سيدى القسيس ! ما هو الجديد الذى تعرفه ؟ »

وكان الرجل وهو يقول ذلك ملتفتا نحو القسيس ، فلم يرد

عليه هذا الاخير ، اذ كان يتحدث الي دون انقطاع ، وكان صوت العربة يصم أذنيه عن السماع • فاستطرد « المحضر » قائلا وهو يرفع عقيرته فى هذه المرة ، كى يعلو صوته على هدير العجلات : « حقا انها عربة جهنمية ! » وسكت لحظة قصيرة ثم أردف يقول : « انها « المطبات » دون شك ، هى التى تجعل احدنا لا يسمع الآخر . ماذا كنت أريد أن أقول ؟ آه ! نعم ، قل لى ياسيدى القسيس لو تفضلت .. هل تعرف الخبر الجديد فى باريس اليوم ؟ »

فانتفضت كما لو كان الرجل يتحدث عنى ، بينما أجابه القسيس قائلا بعد أن سمعه اخيرا :

— كلا ، لم اجد متسعا من الوقت لقراءة صحف الصباح ، وسوف أرى ذلك فى المساء • اننى حينما أكون مشغولا هكذا طول اليوم ، أوصى البواب بان يحتفظ لى بالصحف حتى اقراها عند عودتى فى المساء

— أوه ! من المستحيل انك لا تعرف خبر باريس ! خبر هذا الصباح !

وهنا تدخلت فى الحديث قائلا :

— احسب انى اعرف هذا الخبر

فنظر الى المحضر ثم قال :

— انت ! احقا ؟ اذن فما هو رايك ؟

فقلت له :

— انك محب للاستطلاع !

فاجابنى الرجل بقوله :

— لماذا ياسيدى ؟ ان لكل منا رايه السياسى ، وانا احترمك الى حد أنى أعتقد انليس لك رأى فى هذا الموضوع • اما انا فانى موافق تماما على اعادة تكوين الحرس الوطنى . لقد كنت جاويش سريتى وكان ذلك حقا شيئا لطيفا للغاية ..

فقاطعته قائلا :

— كنت اظن انك لا تعنى هذا الخبر

— واى خبر لديك اذن ؟ لقد كنت تقول انك تعرف الخبر

— كنت اتحدث عن خبر آخر تهتم به باريس كذلك

ولم يفهم الغبى ، غير أن حبه للاستطلاع تيقظ ، فقال فى لهفة :

— خبر جديد ؟ وانى لك ان تعرف هذه الاخبار بحق الشيطان ؟ ما هو هذا الخبر الذى لديك اذن ياسيدى العزيز ؟ اتعرف هذا الخبر يا سيدى القسيس ؟ هل انت أكثر منى دراية بهذه الاخبار ؟ انبئونى بهذا الخبر من فضلكم . ما الذى حدث ؟ الا تفهموننى ؟ انى أحب الاخبار لانى أقصها على السيد رئيس المحكمة فهذا يسليه كثيرا

واخذ المحضر يهذى بمئات من مثل هذا الهذيان وهو يلتفت نحو القسيس تارة والى تارة أخرى ، فكنت لا ارد عليه الا بهزة من كتفى ، فقال لى آخر الامر :

— حسنا ! فيم تفكر اذن ؟

— افكر فى انى لن افكر بعد هذا المساء !

ـ آه ! أهو كذلك ؟ . . هيا ! انك حزين أكثر مما ينبغي ! لقد كان السيد كاستانج (١) يتحدث رغم محنته

وسكت الرجل لحظة ثم أضاف يقول : « لقد رافقت كذلك السيد « بابا فوان » (٢)، وكان يرتدى قبعته الفاخرة ويدخن سيجارا، أما فتيان مدينة «لاروشيل» (٣) فقد كانوا لايتحدثون الا فيما بينهم ولكنهم كانوا يتحدثون على أية حال

وصمت المحضر لحظة أخرى ثم عاد يقـــول : انهم كانوا مجانين ! كانوا متحمسين للغاية ! وكان يبدو عليهم أنهـــم يحتقرون كل النـــاس . أما انت ايها الشاب فانى أجـــدك مفكرا حقا

فقلت له:

– أنا شاب؟. إنى أكبرك فى السن؟ ان كل ربع ساعة يمر يجعلنى أشيخ بمقدار سنة!

والتفت «المحضر» نحوى ونظر إلى فى دهشة تنطوى على الغبـاء لبضع دقائق ثم شرع يضحك ضحكا ثقيلا وهو يقول:

– أوه! عجبا! أتريد أن تمزح؟ أنت أكبر منى سنا وقد أكون فى سن جدك!

---

(١) مذنب سبقت الاشارة اليه فى الفصل الثانى وهو مجرم رهيب أعدم لانه دس السم لصديق له كان يتولى علاجه

(٢) مجنون رهيب كان يقتل الاطفال بضربة من سكين فى رءوســهم . ورد ذكره فى نفس الفصل

(٣) ضباط صف اربعة أحدهم يدعى «بوريس» وقد أشرنا اليهم

فاجبته قائلا فى جد ورزانة :

ـ انى لا ارغب فى المزاح

وفتح الرجل علبة طباق كانت معه وهو يقول :

ـ خذ هذه ياسيدى العزيز ولا تغضب . خذ مضغة من الطباق ولا تحتفظ لى فى نفسك باية موجدة على

ـ لا تخش شيئا فلن يتسع الوقت امامى للغضب عليك

وفى تلك اللحظة ، ارتطمت علبة الطباق بالقضبان التى كانت بينى وبينه فى عنف ، من جراء أحد « المطبـــات » فسقطت مفتوحة من يده تحت قدمى الجندى فصاح « المحضر » قائلا :

ـ يا لهذه القضبان اللعينة !

ثم التفت الى وهو يقول : « حسنا ! ألست شقيا ؟ هاأنذا قد فقدت كل ما معى من طباق !

فأجبته قائلا وانا ابتسم ابتســامة شاحبة :

ـ انى افقد اكثر مما تفقده انت

وحاول الرجل ان يجمع طباقه وهو يتمتم قائلا من بــين أسنانه :

ـ اكثر مما افقد ؟ هذا كلام يسهل قوله ! سوف ابقى بغير طباق حتى نبلغ باريس ! ان هذا لشىء رهيب !

وواساه الواعظ فى تلك اللحظة ببعض كلمات العزاء . ولست ادرى ما اذا كنت مفكرا مهموما ، ولكن بدا لى أن كلمات القسيس كان يتابع بها الوعظ الذى كان قد وجه الى فى بدايته ، ورويدا رويدا سار الحديث بين القســيس و « المحضر » ، فتركتهمـــا

يتحدثان معا وانصرفت الى خواطرى

ولا شك فى انى كنت لا ازال مستغرقا فى التفكير حينمـــا اقتربنا تماما من أبواب باريس ، ولكن خيل الى ان ضوضـــاء المدينة صارت اكثر من المألوف . وتوقفت العربة لحظة امام « كشك » الجمارك حيث قام بتفتيشها موظفو جمرك البلدية ولو أن العربة كانت تحمل خروفا او ثورا يساق الى المذبح لوجب ان تدفع من اجله مبلغا من المال ، غير أن الرأس البشرى لاتدفع عنه رسوم جمركية ، فمررنا

واجتزنا الضواحى ثم دخلت العربة مسرعة فى تلك الشوارع العتيقة المعقدة فى حى « سان مارسو » وحى « لاسيتى » التى تتلوى وتتقاطع كأنها آلاف الطرق فى مدينـــة النمل ، وكان ضجيج العربة قد أصبح فوق « بلاطها » عاليا متتابعا الى حد أننى لم أعد أسمع أى شىء آخر . وكنت كلما القيت نظرة من خلال الطاقة الصغيرة المربعة ، بدا لى ان أمواجا من المارة كانت تتوقف لتنظر الى العربة المنكودة وان شراذم من الصبية كانت تعدو وراءها ، كما بدا لى انى كنت أرى هنا وهناك ، من حين لآخر ، عند مفارق الطرق رجلا او امراة عجوزا فى ثياب مهلهلة ــ وأحيانا كليهما معا ــ وهما يمسكان فى أيديهما برزمة من الورق المطبوع (١) كان المارة يتخطفونه ، ويفتحـــان فميهما

(١) سبقت الاشارة الى ان احكام الاعدام واوقات تنفيذها كانت تطبع على أوراق تباع الواحدة منها لقاء جزء من المليم وصفه المؤلف فى موضع سابق بأنه « صلدى » ملطخ بالدم

كأنهما يصيحان صياحا عاليا

وكانت الساعة تدق معلنة الثامنة والنصف فى بناء المحكمة لحظة وصولنا الى فناء سجن « لاكونسييرجورى » . ان منظر هذا السلم الكبير ، وتلك الكنيسة الصغيرة السوداء ونوافذ « زنزانات » السجناء الكئيبة قد أرسل فى بدنى برودة الثلج ، وبدا لى فى اللحظة التى وقفت العربة فيها اخيرا ان ضربات قلبى على وشك ان تتوقف كذلك

واستجمعت اطراف قواى الواهنة حينما فتح باب العربة فى مثل وميض البرق ، وقفزت خارج هـــذه الزنزانة المتحركة وتقدمت فى خطوات واسعة تحت قبوة السجن بين صفـــين من الجنود . آه ! ها هو ذا الجمهور قد تجمع سريعا فى طريقى

☐

وكنت اشعر بانى اكاد اكون حرا وعلى سجيتى طيـــلة اللحظات التى اجتزت فيها دهاليز دار القضاء ، ولكن عزمى قد تخلى عنى عندما فتحوا امامى أبوابا منخفضـــة وممرات داخلية وسلالم سرية ، ودهاليز اخرى طويلة مخنوقة ومكتومة لا يطرقها الا الذين يصدرون الاحكام أو تصدر عليهم الاحكام

وكان « المحضر » فى رفقتى على الدوام ، اما القـــيس فكان قد تركنى ليعود بعد ساعتين . ان الرجل كانت لديه مشاغله

وقادونى الى مكتب المدير حيث أسلمنى المحضر اليـــه « يدا بيد » . لقد كان هناك تبادل ، اذ رجاه المدير ان ينتظر

لحظة قائلا له ان لديه صيدا سيكون معدا للتسليم على الفوركي ينقله مباشرة الى سجن « بيستر » في نفس العربة . فقلت لنفسي ان هذا الصيد هو دون شك ذلك المحكوم عليه الذي يجب أن ينام الليلة على حزمة القش التي لم يتسع الوقت امامي لاستهلكها

فقال « المحضر » للمدير : « حسنا ، سوف أنتظر لحظة ، وسنقوم بعمل المحضرين (١) معا ان كان هذا ييسر الامور

وفي انتظار ذلك ، وضعوني في مكتب صغير ملاصق لمكتب المدير ، حيث تركت وحدي وأوصدت الابواب علي في احكام

ولست أدري فيم كنت أفكر ولا كم من الوقت مضى علي هناك ، عندما طرقت أذني ضحكة عنيفة مفاجئة أيقظتني من حلمي . فرفعت عيني وأنا أرتجف ، فعرفت أني لم أعد وحدي في هذه الزنزانة ، اذ كان معي رجل في نحو الخامسة والخمسين من عمره ، متوسط القامة ، محدودب الظهر ، أشيب الرأس بعض الشيء ، ووجهه حافل بالتجاعيد . وكانت أعضاء الرجل قوية عريضة ، أما عيناه فرماديتا اللون ، بهما حور بسيط ، وتعلو شفتيه ابتسامة مرة . وكانت هيئته تبعث على الاشمئزاز ، بقذارته وثيابه المهلهلة التي لا تكاد تستر الا نصف جسمه

ويبدو أن الباب كان قد فتح ليزج بهذا الرجل الى داخل هذه الزنزانة الصغيرة ثم أغلق مرة ثانية دون أن أفطن الى ذلك .

(١) يعني محضري التسليم والتسلم

اه لو كان الموت يأتي هكذا !

وامعن كل واحد منا النظر الى وجه الآخر لعدة ثوان وهو يمد في ضحكته التي كانت كحشرجة المحتضر ، وأنا نهب لمزيج من الدهشة والذعر

فقلت له أخيرا :

ـ من أنت ؟

فأجابني الرجل قائلا :

ـ هذا سؤال عجيب .. أنا واحد منهم !

فأعدت عبارته متسائلا في دهشة :

ـ واحد منهم ! ما معنى هذا الكلام ؟

ولاحظت أن هذا السؤال قد ضاعف مرحه

فصاح قائلا وهو يضحك في قهقهة مدوية :

ـ معناه أن السكين ستلعب برأسي بعد ستة أسابيع كما ستداعب رأسك بعد ست ساعات .. ها ! ها ! ها ! يبدو أنك قد فهمت الآن !

والواقع أني شعرت في تلك اللحظة بأن الدماء تفيض من وجهي وبأن شعري يقف في رأسي . لقد كان هذا الرجل هو خليفتي في سجن « بيستر » الذي كانوا ينتظرونه هناك ، كان هو الرجل الذي صدر عليه اليوم حكم بالاعدام

وصمت الرجل لحظة قصيرة ثم تابع حديثه فقال :

ـ ماذا تريد ؟ هذه هي قصتي ، قصتي أنا ، أنني ابن لرجل

بانس أتعب « شـارلو » (١) نفسه ذات يوم للاسف فى ربط الحبل حول عنقه ، وكان ذلك فى عهد المشنقة والحمد لله ، فلم اكد ابلغ السادسة من عمرى حتى وجدت نفسى بلا أب ولا ام. وكنت فى الصيف أتمرغ فى التراب على قارعـة الطريق كى يلقى الى بعضهم «صلدياً» من خلال أبواب العربات . أما فى الشتاء فكنت أسير حافى القدمين فى الوحل وأنا انفخ فى يدى المحمرتين من شدة البرد ، وكانت فخذاى تطلان من خـلال سروالى

وبدأت استعمل يدى فى سن التاسعة ، فكنت من حين لآخر انشل جيبا او أسرق معطفا . وفى سن العاشرة كنت « نشالا » ، وما ان بلغت السابعة عشرة حتى صرت لصـا ، فكنت أحطم أقفال الحوانيت وأستعمل مفاتيح مقلدة . ثم قبض على بعد أن بلغت سن الرشد حسب نص القانون فأرسلونى الى الاشغال الشاقة للتجديف على ظهر السفن . ان الليمان شيء شاق ، فالمرء ينام فيه على لوح من خشب ، ويشرب ماء صرفا ، ويأكل خبزا أسود ، ويجر وراءه كتلة سخيفة من الحديد لا فائدة منها ، ويتلقى ما تيسر من ضربات العصى وضربات الشمس . والى جانب هذا فانهم يقصون له شعره ، وأنا الذى كان لى شعر كستنائى جميل ! وعلى كل حال ، فهذا لايهم !

وقضيت مدة العقوبة : خمسة عشر عاما انتزعت من عمرى

(١) لفظة من اللفظات المستعملة فى لغة السجون ويقصد بها الجلاد (كما يقال عندنا « عشماوى »)

انتزاعا ! وكنت فى الثانية والثلاثين عندما اعطونى ذات صباح امرا بالافراج عنى من الليمان ، مع سبعين فرنكا جمعتهـا لنفسى خلال خمسة عشر عاما من الاشغال الشاقة ، كنت أعمل خلالها ست عشرة ساعة فى اليوم ، وثلاثين يوما فى الشهر ، واثنى عشر شهرا فى السنة . وكان هذا سواء لدى ، فقد كنت اريد بهذه السبعين فرنكا ان أصبح رجـلا شريفا ، وكنت انطوى تحت أسمالى البالية على مشاعر أكثر مما يوجد منهـا تحت ملابس قسيس ، ولكن .. فلتبارك الشياطين فى صحيفة السـوابق ! لقد كانت وثيقـة الافراج عبـارة عن ورقة صفراء مكتوب عليها : « .. أفرج عنه من الليمان » ، وكان لزاما على أن أبرز هذه الورقة حيثما ذهبت ، وأن أقدمها كل ثمانية أيام الى عمدة القرية التى كانوا يرغموننى على الاقامة فيها . يالها من تزكية جميلة (١) ! لقد كان الناس يخافون منى ، وكان الصبيان يفرون عندما يروننى ، وكانت الابواب توصد فى وجهى اذا مررت ! ولم يشأ أحد أن يعطينى عملا ، فأنفقت السبعين فرنكا على طعـامى ، ثم كان على أن أعيش فأبديت ساعدى المفتولين هنا وهناك ، ساعدى اللذين يصلحان تماما للعمل ، ومع ذلك فقد أقفلت فى وجهى كل الابواب . وعرضت أن أعمل اليوم بأكمله لقاء خمسة عشر مليما ، ثم بعشرة مليمات ،

(١) يقصد التزكية المسجلة فى وثيقة الافراج عنه اذ جاء بها : «أفرج عنه من الليمان حيث كان محكوما عليه بالاشغال الشاقة بالتجديف فوق ظهر المراكب ....» .

واخيرا بخمسة ! ولكن دون جدوى ، فماذا أفعل ؟

وشعرت ذات يوم بجوع شديد ، فكسرت بمرفقى زجاجا فى واجهة حانوت خباز وخطفت رغيفا ، واستطاع الخباز أن يمسك بتلابيبى ، فلم اتمكن من أكل الرغيف ، وحكم على بالاشغال الشاقة مدى الحياة فى التجديف على المراكب ، وختموا كتفى بثلاثة أحرف من نار ، وسوف أريك هذا ان اردت · انهم يسمون هذا النوع من العدالة : « عائدا الى الاجرام ! »

هأنذا قد عدت الى الليمان ، وقد القوا بى فى هذه المرة فى ليمان « طولون » ، ووضعونى مع المجرمين العائدين الى الاجرام · وكان لزاما على أن اهرب ، ولتحقيق ذلك لم يكن أمامى الا أن انقب ثلاثة جدران ، وأن أقطع سلسلتين ، وكان معى مسمار فى هذه المرة

واستطعت أن أهرب ذات يوم فاطلقت مدافع الانذار · ذلك أننا معشر العائدين مثل كرادلة روما ، ملابسنا حمراء ، وتطلق لنا المدافع عند الرحيل · لقد اطلقوا مدافعهم جزافا وبلا نتيجة · وكنت فى هذه المرة حرا بلا ورقة صفراء ، ولكن لم تكن لدى نقود كذلك

وقابلت رفاقا كانوا قد قضوا مدة العقوبة أو فروا من السجن ، فعرض على رئيسهم أن أكون واحدا منهم ، وكانوا قطاع طرق يقتالون الناس · فوافقت وأخذت أقتل لاعيش ، وكنا تارة نهاجم عربة تقل الركاب أو البريد ، واخرى نهاجم مسافرا يسير بمفرده ، وثالثة نهاجم تاجرا ثريا يمتطى جوادا ،

فكنا نسلب النقود ونترك الدابة أو العربة تهيم كيفما اتفق، اما الرجل فكنا ندفنه تحت شجرة ، ونحرص على ألا تبرز قدماه، ثم نرقص بعد ذلك فوق الحفرة التى دفناه فيها ، حتى لاتبدو الارض كأنها نبشت حديثا

وهكذا شخت وأنا مختبىء فى الاحراش ، انام وانا التحف السماء واطارد من غابة الى غابة ، غير انى كنت حرا وملكا لنفسى على الاقل · إن لكل شىء نهاية ، وهى نهاية لاتختلف عن سواها

واطبق علينا البوليس ذات ليلة ، فهرب زملائى ، ولكننى وقعت ـ وأنا أكبرهم سنا ـ فى مخالب هذه القطط التى ترتدى قبعات موشاة بالاشرطة ، فساقونى الى هنا !

وكنت قد تدرجت فى كل درجات السجون عدا هذه الدرجة، فسواء سرقت منديلا أو قتلت نفسا ، فان الامر يستوى من الآن فصاعدا بالنسبة الى ، فقد كانت هناك العودة الثالثة الى الاجرام ، التى طبقت عقوبتها على فى هذه المرة ، ولم يعد امامى الا ان امر بالمقصلة !

لم تستغرق قضيتى وقتا طويلا ، اذ انى بدات اشيخ حقا ولم اعد اصلح لاى شىء ! ان والدى قد مات شنقا وانا سوف اموت بالمقصلة . تلك هى قصتى ايها الزميل ! »

وكنت قد مكثت طول الوقت مشدوها وانا اصغى اليه ، ثم عاد الرجل الى الضحك بصوت اعلى مما كان يفعل فى البداية ، وهم بأن يصافحنى فتراجعت مذعورا الى الوراء !

فقال الرجل عندئذ :

ـ يبدو عليك انك شجاع ايها الصديق ، فلا تكن جبانا امام الموت . اتفهمنى ؟ انها لحظة سيئة ستقضيها فى ساحة الاعدام ، ولكنها ستنتهى بسرعة ! لشد ما اريد ان اكون هناك لاريك كيف يسقط الجسد ! لست ارغب بحق السماء فى استئناف الحكم ان ارادوا ان يعدمونى معك اليوم . ان نفس القسيس سيتولى أمرنا معا ، ولا يهمنى ان احصل على مخلفاتك . هأنتذا ترى اننى ولد طيب ، اليس كذلك ؟ قل لى اذن ، الا ترغب فى صداقتى ؟

وخطا الى الامام خطوة ليقترب منى ، فقلت له وانا ادفعه بعيدا :

ـ شكرا لك ياسيدى

وما ان سمع الرجل اجابتى هذه ، حتى انفجر ضاحكا من جديد ثم قال :

ـ سيدى .. آه ! آه ! انك ماركيز ! انك لماركيز !

فقاطعته قائلا :

ـ ياصديقى ! انى بحاجة الى ان اخلو الى نفسى ، فدعنى وشأنى

ودفعته جدية كلامى الى التفكير فجاة ، فهز راسه الرمادى الذى يكاد يكون اصلع ، ثم حك بأظافره فى صدره ذى الشعر الكث الذى كان يبدو من خلال قميصه المفتوح وتمتم قائلا من بين اسنانه :

ـ لقد فهمت . انك تفكر فى القسيس !

وبعد بضع دقائق من الصمت استطرد يقول ، وقد شاعت فى نبرات صوته رنة خجل :

ـ انت ماركيز وهذا حسن جدا ، ولكن لديك هنا « ردنجوتا » جميلا لن ينفعك فى شىء ؟ وسوف يأخذه السجن منك ، فاعطنى اياه فسوف ابيعه لاحصل على طباق

فخلعت « الردنجوت » الذى كنت ارتديه ، واعطيته اياه ، فاخذ يصفق بيديه فى مرح ، كأنه طفل صغير ، ولكنه حين راى اننى كنت ارتعد فى قميصى قال لى : « انك ترتجف ياسيدى من البرد ، خذ هذه والبسها فالمطر يتساقط وسوف تبتل ، ثم انه يلزمك ان تكون اكثر وقارا وانت فوق العربة »

قال هذا وهو يخلع سترته الخشنة المصنوعة من الصوف الرمادى ، ثم وضعها على كتفى وادخل ذراعى فى كميها ، فتركته يفعل ذلك دون اعتراض او مقاومة

وذهبت عندئذ لاتكىء على الجدار ، ولن استطيع ان اصور الاثر الذى تركه هذا الرجل فى نفسى ، وكان قد اخذ يفحص « الردنجوت » الذى اعطيته اياه ، وتصدر عنه من لحظة الى اخرى صيحات تدل على السرور ، ثم اضاف يقول : « ان جيوبه جديدة تماما ! والياقة ليست بالية ! سوف احصل فى مقابله على خمسة عشر فرنكا على الاقل .. يا للسعادة ! سيكون لدى طباق طيلة الاسابيع الستة الباقية لى على قيد الحياة ! »

وفتح الباب مرة اخرى . لقد جاءوا لاخذنا نحن الاثنين :انا الى الغرفة التى ينتظر فيها المحكوم عليهم بالاعدام ساعة التنفيذ ، وهو الى سجن « بيستر » . ووقف الرجل بين الجنود الذين كان عليهم ان يرافقوه ، وهو يقول لهم : « آه ! يا هؤلاء .. لا تخلطوا بيننا ، فقد تبادلنا ملابسنا انا وهذا السيد . لا تأخذونى بدلا منه ، ياللشيطان ! ان هذا لم يعد يروق لى الآن وقد اصبح معى ما استطيع به ان احصل على الطباق ! »

□

لقد اخذ منى هذا اللص العجوز « الردنجوت » لاننى لم اهبه اليه فى الحقيقة ، ثم انه ترك لى سترته الكئيبة ، هذه الخرقة البالية ، فكيف ستكون هيئتى اذن ؟

اننى لم اتركه يأخذ منى « الردنجوت » عن عدم اكتراث او بداعى العطف عليه ، كلا ، ولكن لانه كان اكثر منى قوة ، ولو أنى رفضت ماطلب لضربنى بقبضة يده الضخمة

آه ! حسنا ! نعم ، انه الاحسان ! لقد كنت ساعتها افيض بالمشاعر السيئة ، وكنت اتوق لان اخنق هذا اللص العجوز بيدى ، أو ان اسحقه سحقا تحت قدمى !

انى لاشعر بقلبى يطفح بالغضب والمرارة ، واحسب ان مرارتى قد انفجرت ! حقا ان الموت يجعل الانسان شريرا غليظ القلب

وقادونى الى زنزانة ليس فيها الا جدران اربعة ، بنافذتها قضبان كثيرة من حديد وببابها عدد كبير من المزاليج والاقفال

وهذا امر طبيعى

فطلبت منضدة ومقعدا وادوات للكتابة ، فاحضروا لى ماطلبت . ثم طلبت فراشا فحدجنى السجان بنظرة تطل منها الدهشة وكانه يقول : « وماجدوى ذلك ؟ »

ومع ذلك ، فقد نصبوا لى سريرا حقيرا فى ركن الزنزانة ، ولكن جاء فى نفس الوقت حارس ليجلس معى فيما كانوا يسمونه « غرفتى » ! ترى هل يخافون أن اخنق نفسى بالفراش ؟

□

الساعة الآن العاشرة

آه يا ابنتى المسكين ! سوف اموت بعد ست ساعات! وسوف اكون شيئا قذرا يلقى به على مناضد مدرجات كلية الطب ! وسوف يشرح الراس فى جهة والجذع فى جهة اخرى ، ثم يلقى بما تبقى منى فى صندوق بمقبرة « كلامار »

هذا هو يا ابنتى ما سيفعله بابيك هؤلاء الرجال الذين لايكرهنى احد منهم ، والذين يرثون لحالى جميعا ، والذين يستطيعون جميعا انقاذى . انهم سيقتلوننى فى الحال ، فهل تفهمين هذا يا « مارى » ؟ سيقتلوننى بكل برود ، وفى حفل رسمى لمصلحة المجتمع ! آه ! يا الهى العظيم !

مسكين انت ياصغيرتى ! ان والدك الذى كان يحبك حبا لا مزيد عليه ، والدك الذى كان يقبل رقبتك الصغيرة المعطرة ، ولا تكف يده عن مداعبة خصلات شعرك الحريرى ، والذى كان

باخذ وجهك الجميل المستدير فى يده ، وكان يطيب له ان تقفزى على ركبتيه ، والذى كان يجعلك فى المســاء تضمين يديك لتصلى لله !

٥ من ذا الذى سيفعل لك كل هذا يا «مارى» بعد الآن ؟ من ذا الذى سيحبك ؟ ان كافة الاطفال فى سنك سيكون لهم آباء الا انت يا مارى . كيف تفقدين يا ابنتى عيد راس السنة ، والهدايا واللعب الجميلة ، والحلوى والقبلات ؟ كيف تفقدين أيتها اليتيمة البائسة عادة الاكل والشرب ؟

آه لو كان هؤلاء المحلفون قد راوها على الافــل ، ابنتى « مارى » هذه الصغيرة الجميلة ! اذن لفهموا انه يجب الا يقتل اب لطفلة عمرها ثلاثة أعوام !

وعندما تكبر ابنتى ، اذا قدر لها ان تكبر ، فماذا عسى ان يكون مصيرها ؟ ان اباها سيصبح ذكرى من ذكريات اهل باريس ! لسوف تحمر خجلا منى ومن اسمى ! انها ستكون محتقرة ، ينأى عنها الناس بجنوبهم ، وحقيرة وضيعة بسببى انا ، انا الذى احبها بكل مافى قلبى من حنان . آه يا « مارى » ياطفلتى الصغيرة المحبوبة ! احقا انك ستخجلين منى وتشعرين نحوى بالاشمئزاز ؟

انا . . يالى من بائس ! ويا للجريمة التى اقترفتها، ويا للجريمة التى اتسبب فى ان يقترفها المجتمع !

آه ! اصحيح حقا اننى سأموت قبل نهاية هذا اليوم ؟ احقا اننى انا هذا الرجل ؟ هذا الصوت المكتوم الصادر عن الصياح

الذى اسمعه فى الخارج ، وهذا السيل المرح من الجماهير التى تسرع على ارصفة نهر « السين » ، وهؤلاء الجنــود الذين يستعدون فى ثكناتهم ، وهذا القســيس بثيابه السوداء ، وهذا الرجل الآخر ذو اليدين الحمراوين ، هؤلاء جميعا هل هم من اجلى ؟ من اجلى انا الذى سأموت ! انا نفسى الذى استقر هنا حيا واتحرك واتنفس ، واجلس امام هذه المنضدة التى تشبه اية منضدة اخرى ، ويمكن ان تكون كذلك فى اى مكان آخر ! انا كذلك ، هذا الشخص الذى المسه واشعر به ، والذى ثيابه هذه طياتها !؟

□

آه لو كنت اعلم كذلك كيف صنعت هذه المنضدة وكيف صنع هذا المقعد ، وباية طريقة يموت المرء بهما ! لكن هذا شىء رهيب ، انى لا اعرفه . ان اسم هذا الشىء يثير الرعب فى النفوس ولست افهم على الاطلاق كيف استطعت ان اكتب هذه الكلمة وان انطق بها

ان تجمع الحروف التى تكون هذه الكلمة ومظهرها وشكلها قد خلقت جميعا لتوقظ فكرة مرعبة ، وان الطبيب المنحوس الذى اخترع هذا الشىء كان اسمه مسطورا فى لوحة القدر ! انها صورة غير واضحة وكئيبة للغاية تلك التى ترتبط عندى مع هذه الكلمة المشئومة ، وكل حرف من حروفها يبدو لى ، كانه جزء من تلك الآلة الرهيبة التى اظل اهدم وابنى اجزاءها الجهنمية فى نفسى دون انقطاع

انني لا اجرؤ على السؤال عنها ، غير ان من المرعب الا اعرف ماهي ، ولاكيف اتصرف وانا واقف عليها ، ويبدو لي ان بها مايشبه الارجوحة ، وانهم يجعلون المحكوم عليه ينام على بطنه.
آه ! ان شعري سوف يبيض لامحالة قبل ان يسقط راسي !

ومع ذلك فقد لمحتها ذات مرة

كنت ذات يوم امر في عربة الى جوار ساحة الاعدام ، وكان ذلك في نحو الساعة الحادية عشرة صباحا . وفجأة توقفت العربة عن المسير

وكان هناك جمهور غفير يحيط بالساحة ، واخرجت راسي من نافذة العربة فرايت جموعا حاشدة تملأ المكان وتزحف على ارصفة نهر « السين » ، وكان الرجال والنساء والاطفال يقفون فوق سور النهر الحجري ، ومن فوق الرءوس كان في وسع المرء ان يرى منصة حمراء من الخشب كان يعدها ثلاثة رجال . .

كان ثمة شخص محكوم عليه بالاعدام سوف ينفذ فيه الحكم في نفس اليوم الذي كانوا يعدون فيه الآلة

واشحت بوجهي قبل ان ارى ، وفي تلك اللحظة سمعت امراة كانت تقف الى جوار العربة تقول لصبي : « عجبا ! انظر ! ان السكين لا تجيد القطع وسوف « يشحمون » المجرى حالا بقطعة من الشمع »

ومن المحتمل اليوم انهم يفعلون ذلك الآن ، فقد دقت الساعة الحادية عشرة منذ لحظة ، ولاشك في انهم « يشحمون »

المجرى الآن

آه ! في هذه المرة ايها التعس لن تستطيع ان تشيح بوجهك !

آه ! العفو العفو !

قد يصدر عني العفو ، فالملك ليس غاضبا علي . فليذهبوا اذن لاحضار محام . الى بالمحامي ، وبسرعة ! اني اقبل الاشغال الشاقة عن طيب خاطر ، والتجديف على السفن ، اقبل الاشغال الشاقة لمدة خمس سنوات او عشرين سنة ، بل مدى الحياة ، واقبل معها كي كتفي بالحديد الاحمر المحمى في النار كما يشاءون .. ولكن ، ليعتقوا رقبتي فحسب !

ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة لا يزال يمشي ، ويروح ويغدو . انه يرى الشمس !

هذا القسيس

وجاء القسيس الواعظ

كان أبيض الشعر ، لطيف الشكل للغاية ، تبدو على ملامح وجهه علامات الطيبة والاحترام . كان فى الواقع رجلا ممتازا كريما ، فقد رايته فى هذا الصباح يفرغ ما فى جيبه فى ايدى السجناء ، فلماذا لايوجد فى صوته مايؤثر او يدل على التأثر ؟ كيف يتفق انه لم يقل لى بعد شيئا يؤثر فى تفكيرى او يمس قلبى ؟

لقد كنت تائها فى هذا الصباح حتى اننى لم اكد اسمع ماقاله لى ، ومع ذلك فقد بدت لى كلماته عديمة النفع ، وبقيت غير متأثر بها . انها كانت تنزلق من فمه كما ينزلق هذا المطر البارد على هذا الزجاج المثلج

ومع ذلك فقد اراحنى مرأى الرجل بمجرد ان عاد الى جوارى ، فهو الذى لايزال بالنسبة الى الانسان الوحيد بين هؤلاء الرجال . لقد قلت هذا فى نفسى وقد شعرت بظمأ شديد الى سماع اية كلمة طيبة مواسية

وكنا جالسين ، هو على المقعد ، وانا على السرير ، فقال لى :

ـ يابنى ..

وأحسست فى تلك اللحظة بان كلمته هذه قد فتحت قلبى المغلق ، واستمر القسيس فى حديثه قائلا : « اتؤمن بالله يا بنى ؟ »

ـ نعم يا ابى

ـ وهل تؤمن بالكنيسة الكاثوليكية البابوية الرومانية ؟

ـ نعم فى كثير من السرور

وهنا استطرد الرجل يقول :

ـ يبدو عليك انك متشكك يابنى

ثم اخذ يتكلم فأطال الحديث ، وقال كلاما كثيرا . ولما ظن اخيرا انه قد انتهى من حديثه ، نهض ونظر الى لأول مرة منذ شرع يتكلم ثم سألنى قائلا :

ـ حسنا ؟

فاكدت له انى قد استمعت اليه ، فى شغف اولا ، ثم فى انتباه ثانيا ، ثم فى اخلاص ثالثا

ثم نهضت بدورى وانا اجيبه قائلا :

ـ سيدى .. أرجوك ان تدعنى وحدى

ـ ومتى اعود ؟

ـ سوف اخبرك فى الوقت المناسب

فخرج الرجل عندئذ دون ان يبدو عليه اى اثر للغضب ، غير انه كان يهز رأسه كما لو كان يقول فى نفسه : « انه غير مؤمن ! »

كلا .. فمهما انحدرت الى اسفل الدرك فانا لست كذلك ، والله شهيد على انى أؤمن به . ولكن ماذا قال لى هذا الشيخ ؟ انه لم يقل شيئا احس به ، او المس حنانه على او يبكينى .

انه لم ينتزع من روحى شيئا ولم يخرج من قلبه شيء يصل الى قلبى ، شيء يصدر من القلب الى القلب ، بل على العكس ، لقد حدثنى عن اشياء اراها غامضة سطحية من الممكن ان تنطبق على كل شيء وعلى كل انسان ، عن اشياء هى ادنى الى البلاغة منها الى التعمق ، وسطحية فى حين أن الحاجة كانت ماسة الى البساطة . كان حديثه ضربا من الوعظ الوجدانى والتمجيد الدينى ، تتخلله من آن لآخر عبارة لاتينية ، او نص للقديس « اوجستان » او للقديس « جريجوار » لست ادرى ايهما ! ثم انه كان يبدو عليه انه يعيد تلاوة درس قد تلاه من قبل عشرين مرة ، او انه يراجع موضوعا يستخلصه من ذاكرته لكثرة معرفته به ، فلا تعبير فى نظرة عينيه ، ولا حرارة فى نبرات صوته ، ولا حركة معبرة من يديه

وكيف يمكن أن يكون الامر على خلاف ذلك ؟ او ليس هذا القسيس هو الواعظ الرسمى للسجن ؟ ان عمله ينحصر فى ان يواسى ويعظ ، وهو يعيش من عمله هذا . ان السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، ومرضى السجن ، هم الذين يتبعونه ، وهو الذى يجعلهم يعترفون ، وهو الذى يساعدهم ، لان هذه هى وظيفته التى يؤديها . لقد هرم هذا الرجل وهو يرافق الآخرين الى الموت والف منذ زمن بعيد ماتقشعر له الابدان ان شعره الابيض لم يعد يقف فوق رأسه ، فالليمان والمشنقة شيئان يراهما فى كل يوم حتى أصبح لا يتأثر كثيرا لمرآهما وقد تكون لديه كراسة يخصص صفحة منها للمحكوم عليهم

بالاشغال الشاقة ، واخرى للمحكوم عليهم بالاعدام . انهم يخطرونه فى الليلة السابقة بانه سيكون لديه شخص ليواسيه فى وقت كذا ، فيسالهم من اى نوع هو : اشغال شاقة ام « اعدام » ؟ .. ثم يراجع الرجل صفحته ويحضر درسه ، وهكذا يحدث أن هؤلاء الذين يذهبون الى ليمان « طولون » واولئك الذين يذهبون الى ساحة الاعدام ، يصبحون جميعا لديه افكارا مطروقة ، كما يصبح هو عندهم فكرة مطروقة كذلك

آه ! فليذهبوا اذن وليحضروا لى بدلا من ذلك واعظا شابا او قسيسا شيخا كيفما اتفق من أول « ابرشية » تصادفهم ، ولينتزعوه من جلسته وهو الى جوار ناره يقرأ كتابه وليقولوا له : « هناك رجل سيموت حالا ، ويجب أن تكون انت من تواسيه ، يجب ان تكون الى جانبه حين يوثقون يديه ، وحين يقصون شعره وان تركب معه فى العربة ومعك صليبك كى تحجب عنه منظر الجلاد ، وان تشاطره وعورة الطريق حتى يبلغ ساحة الاعدام ، وان تجتاز معه هذا الجمع الغفير المروع شارب الدماء ، وان تقبله وهو يرقى الى المقصلة ، وان تظل واقفا هناك حتى يفصل راسه عن جسده ، ويصبح راسه هنا وجسمه هناك

فليحضروا الى اذن هذا القسيس وهو يرتجف ، وجسده باسره يرتعد من قمة راسه الى اخمص قدمه ، وليلقوا بى بين ذراعيه وعلى ركبتيه . لسوف يبكى عندئذ ولسوف ابكى

معه ، سوف يكون فصيحا بليغا ، فاشعر بالمواساة واسكب مافى قلبى فى قلبه ، وسوف يملك على زمام نفسى وتنتقل الى قوة ايمانه

ولكن .. من هو هذا الشيخ الطيب ، اين هو منى واين انا منه ؟ اننى انسان شقى ، وظل من الظلال التى طالما راى كثيرا منها ، وواحد آخر يضيفه الى عدد اولئك الذين نفذ فيهم حكم الاعدام ؟!

وقد اكون مخطئا بابعاده عنى على هذا النحو ، فهو الرجل الصالح وانا الرجل الطالح ، ولكن الذنب ليس ذنبى للأسف ! وانما مرد ذلك لآرائى كانسان محكوم عليه بالموت ، فالآراء كثيرا ما تفسد كل شيء وتجعله يذبل !

لقد احضروا الى طعاما منذ لحظة . لقد حسبوا اننى لابد ان اكون فى حاجة اليه . هاهى ذى مائدة رقيقة شهية ، عليها دجاجة فيما يبدو ، والوان اخرى كذلك .. حسنا ! لقد حاولت ان آكل ، ولكن الطعام سقط من فمى عند اول لقمة تناولتها ، وقد بدا لى كريها مر المذاق !

حضر منذ لحظة رجل قبعته فوق راسه (١) ، فالقى على نظرة عابرة ، ثم نصب سلما من الخشب واخذ يقيس احجار الجدار من اسفل الى اعلى ، وهو يتكلم بصوت مرتفع للغاية ،

---

(١) تقضى التقاليد الغربية بان يرفع المرء القبعة عن راسه عندما يدخل على قوم او يحيى شخصا ما

ليقول تارة : « انه لكذلك » وليصيح تارة اخرى : « كلا ، ليس كذلك »

وسالت الحارس عمن يكون هذا الرجل ، فقال لى انه يبدو انه يعمل كمساعد مهندس فى السجن

ومن ناحية اخرى ، فقد ثار حب الاستطلاع فى نفس هذا الموظف من ناحيتى ، فقد تبادل كلمات ، كلها تلميح مع حامل مفاتيح السجن الذى كان فى رفقته ، ثم انعم النظر فى لحظة ، وهو يهز راسه فى غير مبالاة ، واستانف حديثه وهو يتابع قياس ابعاد الجدار بنفس اللهجة المرتفعة التى كان يتكلم بها من قبل

وما ان فرغ الرجل من عمله حتى اقترب منى وهو يقول فى صوت جهورى : « ياصديقى العزيز .. سوف يكون هذا السجن بعد ستة اشهر افضل من هذا بكثير »

وكانت الحركة التى اتى بها وهو يقول ذلك كانها تقول : « ولكنك للأسف لن تستمتع بهذا التحسين ! »

كان الرجل يبتسم تقريبا ، فخيل الى وقتئذ اننى كنت ارى اللحظة التى كان يوشك فيها ان يسخر منى برفق كما يمزح الناس مع عروس شابة فى ليلة الزفاف

وقد تكفل الجندى الذى كان فى حراستى بالرد عليه ، وكان حارسا عجوزا قد ابيض شعر راسه وهو فى حراسة السجناء ، فقال له : « سيدى لايرفع المرء صوته هكذا فى حجرة ميت ! »

ورحل المهندس ، اما انا فبقيت هناك كحجر من الاحجار

التى كان يقيس ابعادها !

وحدث لى بعد ذلك شيء يبعث على السخرية ، فقد جاءوا ليغيروا حارسى العجوز ، وأنا أنانى وغير معترف بالجميل ، فلم اصافحه حتى بلمسة يد ، وحل مكانه آخر وكان رجلا ذابل الجبين ، تشبه عيناه اعين البقر ووجهه جامد لاتعبير فيه

ولم اكن من ناحيتى قد أعرت ذلك اى انتباه ، فقد كنت جالسا الى المنضدة وظهرى الى الباب ، وانا احاول ان ارطب بيدى جبينى الملتهب ، وكانت خواطرى تثور فى نفسى

واحسست فجاة بضربة خفيفة على كتفى أدرت لها راسى . كان هذا جندى الحراسة الجديد الذى كنت معه وحدى

وهذه ـ تقريبا ـ هى الطريقة التى وجه بها الحديث الى :

قال لى الرجل :

ـ هل انت طيب القلب ايها المجرم ؟

ـ كلا !

وبدا لى ان سرعة اجابتى قد صدمته ، ومع ذلك فقد عاود حديثه قائلا فى تردد :

ـ ان المرء لايكون مؤذيا لمجرد الرغبة فى الايذاء

ـ ولم لا ؟ اذا لم يكن لديك سوى هذا الكلام فاتركنى وشأنى . ما الذى ترمى اليه ؟

ـ عفوا ايها المجرم ، لدى كلمتان ، كلمتان فحسب ، اريد أن اقولهما لك : اذا كنت تستطيع ان تسعد رجلا مسكينا دون أن يكلفك ذلك شيئا فهل تفعل ؟

فاجبته قائلا وأنا اهز كتفى :

ـ هل انت قادم ياهذا من مستشفى المجانين ؟ انك تختار اناء غريبا لتستخرج منه السعادة ! انا ؟ . . أنا اسعد شخصا ؟

فخفض الجندى من صوته وبدا عليه كأنه يخفى فى نفسه سرا ـ وان كان ذلك لا يتفق مع وجهه الذى ينطق بالغباء ـ وهو يقول لى :

ـ نعم أيها المجرم .. نعم ، السعادة ، والثروة ! ان هذا كله سوف يأتينى منك . هذا هو مافى الامر . انا جندى مسكين ، والخدمة ثقيلة ، واجرى ضئيل ، ولى جواد يخربنى ! غير أننى أقامر فى أوراق « اليانصيب » كى أوازن حياتى . ان المرء تلزمه صناعة ، ولا ينقصنى حتى الآن كى اربح فى « اليانصيب » ، الا ان احصل على الارقام الجيدة ، وانا دائب البحث عنها فى كل مكان . انى ابحث عن ارقام مضمونة ولكنى اقع دائما على ارقام تجاورها ، اقامر على الرقم ٧٦مثلا فيكسب الرقم ٧٧ ، ومهما اصطنعت من فراسة فانى لااهتدى الى الرقم الرابح .. اصبر قليلا من فضلك فقد أوشكت على الانتهاء ـ ولكن هذه فرصة طيبة بالنسبة الى ، اذ يبدو لى ـ عفوا ايها المجرم ـ انك ستعدم اليوم ، ومن المؤكد أن الاموات الذين تزهق ارواحهم على هذا النحو يرون ارقام «اليانصيب» الرابحة مقدما . عدنى ان تعود مساء غد ـ ولن يضيرك هذا فى شيء ـ لتعطينى ثلاثة ارقام ، ثلاثة أرقام رابحة أليس كذلك؟ انى لا اخاف الاشباح فكن مطمئنا ، واليك عنوانى : « ثكنات

بوبانكور ، سلم رقم ١ ، عنبر رقم ٢٦ فى نهـاية الدهليز » وسوف تتعرف على فى غير عناء اليس كذلك ؟ ويمكنك ان تحضر حتى فى هذا المساء ان كان هذا يروق لك

وكنت شديد الرغبة فىاحتقار هذا الاحمق بعدم الرد عليه، لولا ان ثار فى نفسى امل جنونى ، ففى مثل الحالة اليائسة التى كنت فيها ، يعتقد المرء احيانا ان فى وسعه ان يحطم سلسلة حديدية بشعرة

فقلت له وانا امثل بقدر مايستطيع ان يمثل انسان يوشك ان يموت :

ـ اصغ الى .. اننى استطيع حقا ان اجعلك اغنى من الملك، ان اجعلك تربح الملايين ، ولكن بشرط

ففتح الرجل عينين يطل منهما الغباء وهو يقول :

ـ ماهو ؟ ماهو ؟ سوف افعل كل شيء لارضائك ايهـا المجرم !

ـ أعدك بأربعة ارقام لا بثلاثة ..استبدل ملابسك بملابسى

فصاح الحارس وهو يفك الازرار الاولى فى زيه العسكرى :

ـ لو كان الامر مقصورا على ذلك !

وكنت قد نهضت من مقعدى وانا ارقب كل حركة من حركاته وقلبى ينتفض فى صدرى ، وكنت اتخيل الابواب وهى تفتح امام زيى كحارس من حراس السجن ، واتخيل الميـدان ، والشارع ، ثم دار القضاء من وراء ظهرى !

ولكن الرجل التفت الى وهو يقول فى تردد : « آه يا هذا !

لاشك فى انك لا تقصد بهذا طبعا الا ان تخرج من هنا ؟

فادركت عندئذ ان كل شيء قد ضاع ، وبذلت مع ذلك جهدا اخيرا لا طائل تحته ، جهـــدا غير منطقى على الاطـلاق ! فقلت له :

ـ اننى اقصد هذا حقا ، ولكن ثراءك مضمون ...

فقاطعنى الجندى قائلا :

ـ آه ! حسـنا ! كلا ، كلا .. عجبا ! فلكى تربح ارقامى يجب ان تكون انت ميتا !

فجلست ثانية فى صمت وقد تملكنى يأس لم اشعر بمثله قط من قبل !

أيام صباى

اغمضت عينى ، ووضعت يدى فوقهما ، محاولا ان انسى الحاضر فى الماضى ، وبينما أنا أحلم ، عادت الى ذكريات طفولتى وشبابى ، واحدة اثر اخرى ، عادت هادئة وحلوة ضاحكة كأنها جزر من الزهر على حافة هذه الهوة السحيقة من الافكار السوداء الغامضة التى كانت تغلى فى راسى

هاانذا ارى نفسى مرة اخرى طفلا وتلميذا ضاحكا نضرا ، العب واجرى واصيح مع اخوتى فى هذا الممر الكبير الاخضر بتلك الحديقة غير المنسقة ، حيث انقضت سنوات حياتى الاولى ، والتى كانت فى الاصل حديقة للراهبات ، تطل عليها تلك القبة الرمادية الضخمة ، قبة كنيسة « لوفال دوجراس »

وهاانذا هناك ايضا بعد ذلك باربع سنوات وكنت فتى يافعا عطوفا على الدوام . وكانت هناك فتاة شابة فى الحديقة المنعزلة . كانت أسبانية صغيرة تدعى «بيبا» (١) ذات عينين كبيرتين ، وشعر اسود طويل ، وبشرة سمراء ذهبية ، وشفتين قرمزيتين وخدين ورديين . وكانت هذه الاندلسية الجميلة لا تتجاوز الاربعة عشر ربيعا

(١) Pepa (اسم التدليل) ، واسمها الاصلى كما ورد فى نفس الصفحة Pepita

وكانت أمانا قد قالتا لنا أن نذهب لنجرى معا : فجئنا للتنزه . لقد قيل لنا ان نلعب وهانحن أولاء نتبادل الحديث ، ونحن من سن واحدة ، ولكننا لسنا من جنس واحد (١)

ومع ذلك فقد كنا ، منذ عام واحد مضى فحسب ، نلعب ونتصارع معا ، وكنت اتشاجر مع « بيبا » على اجمل تفاحة فى شجرة التفاح ، وكنت اضربها من اجل عش العصافير . انها كانت تبكى فكنت اقول لها : « حسنا فعلت ! » وكنا نذهب لنشكو معا الى امينا اللتين كانتا تقولان بصوت مرتفع اننا كنا مخطئين ، ثم تقولان فى صوت خفيض انا كنا على حق

هاهى ذى الآن تتكىء على ذراعى وقد غمرنى الفخر وتملكنى الانفعال . اننا نسير الهوينى ، وتتحدث بصوت خافت . هاهى ذى تترك منديلها يسقط فالتقطه لها . ان ايدينا ترتعش عندما تتلامس . وهى تتحدث الى عن الطيور الصغيرة ، وعن النجم الذى نراه هناك ، وعن غروب الشمس المحمرة من وراء الشجر ، او عن صديقاتها فى مدرسة الراهبات ، او عن ثوبها وشرائطها الحريرية . اننا كنا نتكلم فى امور بريئة ولكننا كنا نحمر منها خجلا .. ان الفتاة الصغيرة قد أصبحت شابة يافعة

وفى ذاك المساء بالذات — وكان مساء ليلة من ليالى الصيف — كنا جالسين تحت اشجار الكستناء فى نهاية الحديقة ، وبعد احدى فترات الصمت الطويلة التى كانت تتخلل نزهاتنا ، قالت لى « بيبا » : « هيا بنا نجر ! »

(١) المقصود هنا انه ذكر وانها انثى

انني لازلت اراها وهي ترتدي ثيابها السوداء حدادا على وفاة جدتها . لقد مرت بخاطرها حينئذ فكرة من افكار الطفولة ثم عادت « بيبا » لتصبح « بيبتا » مرة ثانية

وقالت لي : « هيا بنا نستبق ! »

واخذت تعدو امامي بقامتها الرشيقة ، وخصرها الدقيق ، وقدميها الصغيرتين اللتين كانتا ترفعان ثوبها الى منتصف ساقيها . وكنت اتبعها وهي تهرب امامي ، وكان الهواء الذي يحدثه عدوها يرفع احيانا قميصها الاسود فيتيح لي ان ارى ظهرها الاسمر النضر

وكنت لا استطيع مغالبة نفسي ، فلحقت بها بجانب البئر القديمة المتهدمة ، وامسكت بها من حزامها بحق انتصاري عليها في السباق ، ثم اجلستها على العشب فلم تقاومني ، وامتثلت وهي تلهث وتضحك ، بينما كنت جادا لا اكف عن النظر الى عينيها الحالمتين من خلال اهدابها الطويلة السوداء

وقالت لي « بيبا » : « اجلس هنا ! فالدنيا لا تزال نهارا .. اجلس ولنقرا شيئا ، اليس معك كتاب ؟ »

وكان معي يومئذ الجزء الثاني من كتاب « رحلات سبالازاني » ، نفتحته في صفحة ما واقتربت منها فأسندت كتفها الى كتفي ، واخذنا نقرا نفس الصفحة بصوت منخفض ، كل واحد منا من ناحيته ، فكانت هي تضطر الى انتظاري قبل ان اقلب الصفحة ، فقد كانت روحها أكثر استيعابا من روحي وكانت تقول لي وانا لم أكد انتهى من قراءة السطور الاولى

من الصفحة : « هل انتهيت ؟ »

وكان رأسانا في خلال ذلك يلتقيان ، وكان شعرنا يتشابك ، وانفاسنا تمتزج رويدا رويدا وفجاة تلاقت شفاهنا !

ولما اردنا ان نتابع قراءتنا كانت النجوم تملأ السماء .. وقالت « بيبا » لوالدتها عندما عادت : « آه ! يا اماه ! آه يا اماه ! آه لو كنت تعلمين كم جرينا ! »

اما انا فلذت بالصمت

وقالت لي والدتي : « انك لا تقول شيئا يابني ! يبدو انك حزين ! »

ولكني لم اكن حزينا ! .. ان الجنة كانت في قلبي ! لسوف اذكر هذه الامسية مدى حياتي !

طول حياتي !!

□

دقت الساعة منذ لحظة تعلن الواحدة . ولست ادرى اية ساعة تلك التي دقت فلم أعد اسمع جيدا دقات هذه الساعة ويبدو لي ان في اذني صوتا كصوت الارغن .. انها كانت أفكاري الاخيرة تدوى في اذني :

في هذه اللحظة الحرجة بينما كنت اتأمل ذكرياتي ، وجدت جريمتي فيها بشعة للغاية للمرة الثانية ، ولكني أتمنى كذلك أن اندم اكثر من ذي قبل . لقد كنت اكثر ندما مني الآن قبل ان يصدر الحكم علي ، ومنذ ذلك اليوم ، يبدو لي ان ليس هناك مكان في نفسي الا لافكار الموت . ومع ذلك ، فاني راغب حقا في أن

اندم كثيرا

وعندما حلمت دقيقة ووصلت فى حلمى الى ضربة المقصلة التى يجب ان تضع حدا لحياتى بعد ساعات ، اجتاحتنى رجفة كأن هذا شىء جديد ! يا لطفولتى الجميلة ! ويا لشبابى الجميل؟! انهما يبدوان لى الآن كقماش موشى بالذهب واطرافه ملطخة بالدماء ، فبين ذلك العهد وبين الحاضر نهر من اندم ، دم الرجل الآخر .. ودمى انا !

اذا قرا الناس يوما قصتى هذه بعد كل تلك السنين من البراءة والسعادة ، فلن يصدقوا هذا العام البغيض الذى بدأ بجريمة وانتهى بالمقصلة : انه سيبدو شيئا يشوه بهجة هذه الحياة

ومع ذلك ، فيا ايتها القوانين البائسة ، ويا ايها الرجال التعساء : انى لم اكن شريرا ولا قاسيا !

آه ! الموت بعد بضع ساعات ، وانا افكر فى اننى كنت فى مثل هذا اليوم حرا طليقا ، وطاهرا نقيا منذ عام واحد ؟ وفى اننى كنت أتنزه نزهات الخريف ، واجول كما يروق لى واسير تحت اوراق الخمائل ؟

فى هذه اللحظة بالذات ، هناك الى جوارى ، فى هذه المنازل التى تحيط بدار القضاء وبساحة الاعدام ، كما هو الحال كذلك فى كل مكان فى باريس ، يوجد اناس يروحون ويغدون ويتبادلون الحديث ويضحكون ، ويطالعون الصحف ويفكرون فى اعمالهم ، وتجار يبيعون وفتيات شابات يعددن ثوب

السهرة لحفل الليلة الراقص ، وامهات يلعبن مع اطفالهن !!

اذكر انى ذهبت يوما وانا صبى لرؤية ابراج كنيسة «نوتردام» وكنت قد اصبحت شاردا بسبب صعود السلم الحلزونى المظلم ، وعبور الدهليز الدقيق الذى يربط بين البرجين ، وباريس تحت قدمى ، عندما دخلت القفص المصنوع من الحجر والخشب حيث يتدلى الناقوس الكبير ومعه الجلة ، وهو يزن الفا من الكيلوجرامات

ولقد مشيت وانا ارتجف فوق الالواح الخشبية غير المرتبطة تماما ببعضها ، وانظر من بعيد الى هذا الناقوس المعروف جيدا لاهل باريس واطفالها ، والاحظ فى رعب ان المنحنيات المغطاة بالقرميد التى تحيط بالناقوس كانت فى مستوى قدمى ، وكنت ارى فى أثناء ذلك ، وكأنى طير طائر فى الهواء ، المارين بميدان كنيسة «نوتردام» وكأنهم النمل !

وفجأة ، دوى الناقوس الضخم فهز صوته الراعد الهواء ، وجعل البرج الثقيل يرتج ، وكانت « الارضية » الخشبية تقفز فوق العروق ، وكدت أقع على ظهرى من جراء هذا الصوت ، فترنحت بعض الشىء وأوشكت ان انزلق عن الاطار المنحدر المصنوع من القرميد ، فنمت فوق الالواح الخشبية من فرط الرعب وأنا احضنها بذراعى فى عنف ولا أقوى على التنفس مع هذا الرنين الضخم الذى يجلجل فى اذنى ، وتحت عينى هذه الهوة السحيقة ، وهذا الميدان العميق حيث كان يتقابل عدد كبير من المارة الهادئين الآمنين الذين كنت احسدهم

فى تلك اللحظة على ما هم فيه

حسنا ! انه ليبدو لى الآن اننى لازلت فى برج الناقوس الكبير بكنيسة « نوتردام » . ذلك انى اسمع فى هذه الساعة نفس الدوى واحس بنفس الذهول ، فهناك شيء ما شبيه بدقات الاجراس يهز اعماق مخى ، ولم أعد ألمح من حولى هذه الحياة الممهدة الهادئة التى تركتها وراء ظهرى ، والتى لا يزال الآخرون يدرجون فى طريقها ، لم أعد ألمحها الا من بعيد ، من بعيد جدا ، ومن خلال هوة سحيقة

□

ان مبنى المحافظة مقبض كئيب !

فسقفه الخشن المدبب ، وبرجه الصغير ذو الشكل الغريب، ومزولته الكبيرة البيضاء ، وطبقاته ذوات الاعمدة الصغيرة ، ونوافذه التى تعد بالمئات ، ودرجات سلالمه التى تآكلت من الخطوات ، وقوسا البناء اللذان يحفان به من يمين ومن شمال، كل هذا يجعله جاثما هناك ، كساحة الاعدام ، مظلما كئيبا [illegible] الشيخوخة وجهه ، واسود جدا الى حد انه يبدو قاتما ن الشمس !

وفى الايام التى يتم فيها تنفيذ احكام الاعدام ، تقذف أبوابه …ا رجال الشرطة ويطل كل من فى نوافذه على الشخص المحكوم عليه بالموت . وفى المساء تظل مزولته التى بينت لى الساعة مصبنة فى واجهته المظلمة

الساعة الآن الواحدة والربع

وهذا هو ما اشعر به الان :

انى اقاسى صداعا شديدا ، وبرودة مروعة فى كليتى ، وجبينى ملتهب ، وكلما وقفت او انحنيت بدا لى أن هناك سائلا يجرى فى مخى فيجعله يضطرب فى غلاف جمجمتى

اننى احس برجفة محمومة ، ومن وقت الى آخر يسقط القلم من يدى كما لو كانت تهزنى صدمات كهربائية

ان عينى ملتهبتان كما لو كنت غارقا فى دخان واشعر بألم هائل فى مرفقى

لسوف اشفى بعد انقضاء ساعتين وخمس واربعين دقيقة !

انهم يقولون ان المقصلة لا شيء ، وان المرء لا يتألم ، وانها نهاية حلوة ، وان الموت بهذه الطريقة يكون مختصرا بسيطا

آه ! اذن ما هذا الاحتضار الذى دام ستة أسابيع ؟ وما هذه الحشرجة التى دامت يوما بأكمله ؟ وما هى اذن آلام هذا اليوم الذى لن يعوض والذى يمر بسرعة بالغة وفى بطء بالغ كذلك ؟ وما هو اذن هذا السلم من العذاب الذى ينتهى الى المشنقة ؟

وليس هذا كله الما فى الظاهر !

أو ليست هى نفس التقلصات العنيفة حين يفرغ الدم قطرة قطرة ، وحين ينطفىء الذكاء فكرة بعد فكرة ؟

ثم انهم يقولون ان المرء لا يتألم من المقصلة ، فهل هم واثقون من ذلك ؟ ومن ذا الذى قال لهم هذا الكلام ؟ وهل حدث قط أن رأسا مقطوعا وقف يقطر دما على حافة السلة ليصيح

فى الجمهور قائلا : « ان هذا لايحدث الما ! »

هل حدث ان امواتا ماتوا بهذه الطريقة ، عادوا ليقدموا لهم الشكر وليقولوا لهم : « ان اختراعكم هذا اختراع عظيم ،وعليكم ان تستمروا فى استعماله ! انه آلة جيدة ! »

وهل هو « روبسبيير » الذى قال هذا او « لويس السادس عشر ؟ »

كلا ! لا شىء من هذا ! ان الامر ينتهى فى اقل من دقيقة ، بل فى اقل من ثانية ! — فهل وضعوا انفسهم قط ، ولو فى الخيال، موضع الشخص الذى يكون هناك عندما تهوى السكين الثقيلة فتعض اللحم وتقطع العروق ، وتكسر مفاصل الرقبةوعظامها ؟

ولكن ماذا ؟ .. ماذا تقولون ؟ تقولون انها نصف ساعة ! وان الالم يختصر ! . فيا للهول !

من الغريب حقا انى لا اكف عن التفكير فى الملك !

ومهما فعلت ومهما هززت رأسى ؛ فان هناك صوتا يتردد فى اذنى ويقول لى على الدوام : « هناك فى نفس هذه المدينة ، فى نفس هذه الساعة ،ولكن فىقصر آخر (١)،رجل لديه كذلك حراس على كل ابوابه ، ، وهو شخص فريد فى نوعه بين افراد الشعب من امثالك مع هذا الفارق الوحيد ، وهو انه مرتفع بقدر ما انت منخفض . ان حياته كلها دقيقة فدقيقة ليست الا مجدا وعظمة وسرورا ومتعة ، وكل شىء من حوله عبارة عن

(١) اى فى قصر آخر غير هذا القصرالذى جعلوا منه سجنا ودارا للقضاء

حب واحترام وتبجيل . ان اكثر الاصوات ارتفاعا لتنخفض حينما تتحدث اليه وتنحنى أمامه أكثر الجباه تيها وفخرا ، ولا تقع عيناه الا على الحرير والذهب ، وهو يرؤس فى هذه اللحظة اجتماعا من اجتماعات الوزراء فيقره الجميع على رايه ، أو أنه يفكر فىرحلة الصيد التىسيقوم بها غدا ، أوفىحفل هذه الليلة الراقص ، وهو على يقين من انه سيتم فى الساعة المحددة له ، ويترك للآخرين أمر تدبير ملذاته . حسنا ! ان هذا الرجل مثلك من لحم وعظم ! — ولكى تنهار المقصلة الرهيبة فى نفس اللحظة ويعاد اليك كل شىء : حياتك ، وحريتك ، وثروتك ، وأسرتك ،يكفىمنهان يكتببهذا القلم الحروفالسبعة التىيتكون منها اسمه فى ذيل قصاصة من الورق ، او تقابل عربته الملكية العربة التى ستحملك الى ساحة الاعدام ! — وهو رجل طيب ، وقد لا يكون راغبا فى اكثر من هذا العمل الطيب ، ولكن هذا لن يحدث !

حسنا اذن ! لنكن شجعاء مع الموت . ولنقابل هذه الفكرة الرهيبة بشجاعة ، ولنواجهها وجها لوجه . لنسأل ما هوالموت، ولنعرف ماذا يريده منا ، ولنقلب هذه الفكرة على جميع وجوهها ، ولنقرا الغيب ، ولننظر مقدما فى القبر

انه ليبدو لى اننى عندما ستغمض عيناى ، سأرى ضوءا باهرا وهوة سحيقة من النور تعدو خلالها روحى الى مالانهاية ، ويبدو لى ان السماء سوف تكون مضيئة من تلقاء نفسها ، وان

النجوم ستكون فيها كأنها نقط سوداوات ! نعم ، يبدو لى أن النجوم ستبدو كأنها نقط سوداوات على قماش ذهبى اللون ، بدلا من ان تكون كما تتراءى لاعين الاحياء ، قصاصات من ذهب على قطيفة سوداء

أو قد تكون ربا لشقائى – هوة مروعة ، جدرانها مبطنة بالظلمات ، اهوى فيها بلا توقف وانا ارى اشباحا تتحرك فى الظلام !

او اننى قد اجد نفسى بعد أن استيقظ من ضربة المقصلة فوق مساحة ما مسطحة رطبة،وانا ازحف فى الظلام ، وادور على نفسى مثل الراس الذى يتدحرج ، ويخيل الى انه ستكون هناك ريح صرصر عاتية تدفعنى بلا هوادة ، فاصطدم هنا وهناك برءوس اخرى تتدحرج ، واننى سأمر أحيانا فى طريقى بمستنقعات وجداول وانهار بها سائل فاتر مجهول ، وان كل شيء سيكون حالك السواد ، وان عينى حينما تتجهان فى دورانهما الى اعلى فلن تريا الا سماء مظلمة تضغط عليهما طبقاتها الكثيفة ، والا قبابا ، ضخمة من دخان أسود كالظلمات ، ترى فى النهاية على بعد سحيق ، وأن عينى سوف تريان كذلك شررا صغيرا احمر يتطاير فى الظلام ، لا يلبث عندما يقترب منهما ان يتحول الى طيور من نار ، وستظل الحال على هذا النحو الى الابد

وقد يحدث احيانا فى مواقيت معينة ان يجتمع اولئك الذين ماتوا فى ساحة الاعدام خلال ليالى الشتاء السوداوات فى الميدان

الذى هو خاص بهم ، ولسوف يكون هذا الجمع جمهورا شاحبا داميا ، ولن أتخلف عن ان اكون بينهم ، ولن يكون هناك قمر وسوف نتحدث فى أصوات خافتة . ان مبنى المحافظة سوف يكون هناك بواجهته العتيقة ، وسقفه الممزق ، ومزولته التى كانت لا ترحم أحدا . وسوف تكون فى الميدان مقصلة من جهنم يعدم بها أحد الشياطين جلادا ، وسوف يتم ذلك فى الساعة الرابعة صباحا ، وسوف نتجمهر بدورنا من حوله !

نعم ، قد يكون الامر كذلك . ولكن اذا عاد هؤلاء الموتى فعلى اية صورة يعودون ؟ وما الذى يحتفظون به من اجسامهم الناقصة المشوهة ؟ وماذا سوف يختارون ؟ هل سيكون شبح كل منهم راسا ام جذعا ؟

وا اسفاه ! ترى ماذا يفعل الموت بارواحنا ؟ واى شكل يدعه لها ؟ ما الذى ياخذه منها او يعطيها اياه ؟ واين يضع الموت الروح ؟ وهل يجعل لها فى بعض الاحيان عينين بشريتين كى تنظرا الى الارض وتبكيا ؟

آه ! الى بقسيس ! اريد قسيسا يعرف هذا ، ويحدثنى عنه ! اريد قسيسا وصليبا اقبله !

رباه ! انه دائما نفس القسيس ! (١)

لقد رجوته ان يتركنى فانام ، والقيت بنفسى على السرير ،

(١) يقصد نفس الكاهن الذى كان معه منذ قليل ، وقال عنه ان كلامه فاتر لا حرارة فيه ولا تأثير له

وكان دمى كله قد صعد فى الواقع الى رأسى ، فحملنى هذا على النوم . كانت هذه نومتى الاخيرة من هذا النوع !

ورايت فى المنام أن الوقت كان ليلا ، وخيل الى انى كنت فى مكتبى مع اثنين من اصدقائى او ثلاثة ، لست أدرى من هم على وجه التحقيق

وكانت زوجتى نائمة مع طفلتها فى الغرفة المجاورة

وكنا نتحدث انا واصدقائى فى صوت خفيض ، وكان ما يدور بيننا من الحديث يبعث الخوف فى انفسنا

وفجاة ، خيل الى انى اسمع صوتا ما فى الغرف الاخريات من المسكن ! كان صوتا خافتا غريبا غير واضح !

وكان أصدقائى قد سمعوا هذا الصوت كما سمعته ،فانصتنا جميعا : كان كأنه صوت قفل يفتح خلسة ، أو مزلاج يسحب فى صوت ضئيل

وكان ثمة شىء يثلج اطرافنا : وهو اننا كنا خائفين . وحسبنا أن لصوصا قد تسللوا الى مسكنى فى هذه الساعة المتقدمة جدا من الليل ، فقررنا ان نذهب لنرى ما هنالك . فنهضت من فوق مقعدى ، واخذت الشمعة فى يدى ، وتبعنى اصدقائى واحدا فى اثر الآخر

واجتزنا غرفة النوم المجاورة ، وكانت زوجتى نائمة مع ابنتها ، ثم وصلنا الى غرفة الجلوس ، ولكن لم يكن هناك شىء كانت الصور مثبتة فى اطاراتها الذهبية من فوق الستائر الحمراوات ، غير انه خيل الى ان الباب الذى بين غرفة الجلوس

وبين غرفة المائدة ليس فى مكانه المألوف

ودخلنا غرفة المائدة وطوفنا بها باحثين فاحصين ، وكنت أنا الذى يسير فى الطليعة . كان باب السلم مغلقا تماما وكذلك النوافذ . وعندما بلغت المدفأة رايت ان صوان الملابس كان مفتوحا ، وان بابه كان مشدودا الى زاوية الجدار ، كما لو كان المقصود هو اخفاء ذلك . فأدهشنى هذا ، واعتقدنا أن هناك شخصا ما وراء هذا الباب

فامسكت هذا الباب بيدى كى اعيد اغلاقه ولكنه قاومنى فعجبت وجذبته بقوة هى اكبر من سابقتها ، وفجاة استجاب الباب ، واكتشفنا خلفه امراة عجوزا قصيرة القامة متدلية الذراعين ومغمضة العينين ، قد وقفت بلا حراك كما لو كانت ملتصقة بركن الجدار !

كان ذلك منظرا مفزعا يقف له شعر راسى عندما افكر فيه !

وقلت سائلا هذه العجوز : « ماذا تفعلين هنا ؟ »

فلم تحر جوابا ، وعدت اسألها قائلا : « من انت ؟ »

فلم تجبنى كذلك ولم تبد حراكا وظلت مقفلة العينين

وعندئذ قال لى اصدقائى : « انها دون شك شريكة هؤلاء الذين تسللوا الى بيتك لاغراض شريرة ، ولابد انهم قد فروا حين سمعونا نقترب منهم ، ولم تتمكن هى من الهرب فاختبأت هنا ! »

فسألت المراة من جديد ، ولكنها ظلت لا تتكلم ولا تتحرك ولا تنظر ! ودفعها احدنا فوقعت على أرض الغرفة ، وقعت كتلة

واحدة ، كأنها قطعة من الخشب او شيء جامد لا حياة فيه !

وهززناها من قدميها ، ثم اوقفها اثنان من بيننا ، وجعلاها تستند من جديد الى الجدار ، غير انها لم تبد مايدل على انها على قيد الحياة ! فصرخنا فى اذنها ولكنها بقيت صامتة كأنها صماء !

ونفذ صبرنا مع ذلك ، وكان رعبنا ممزوجا بالغضب ، فقال لى واحد من أصدقائى : « ضع الشمعة تحت ذقنها ! »

فوضعت فتيلة الشمعة الموقدة تحت ذقنها ، وعندئذ فتحت المرأة عينا واحدة ، فتحتها قليلا ، فكانت عينا خاوية لا تنظر ، مخيفة لا حياة فيها !

فابعدت الشمعة عنها وقلت لها : « آه ! أخيرا ! هلا اجبتنى ايتها الساحرة العجوز ؟ من تكونين ؟ »

وانطبقت عين المرأة بحركة تلقائية فقال الآخرون : « انها تبالغ كثيرا فى هذه المرة ! اعد الشمعة مرة اخرى اذ يجب ان نحل عقدة لسانها !

فاعدت الشمعة تحت ذقن العجوز ، ففتحت عينيها فى بطء ونظرت الينا جميعا واحدا بعد الآخر ، ثم انحنت فجأة ونفخت فى الشمعة بنفس بارد ، واحسست فى نفس اللحظة بثلاث اسنان حادة تنغرس فى يدى فى الظلام !

واستيقظت عندئذ من نومى مذعورا وقد غمر جسمى عرق بارد . وكان القسيس الطيب جالسا عند اسفل سريرى يتلو بعض الصلوات

فسألته قائلا :

ـ هل نمت طويلا ؟

فاجابنى بقوله :

ـ نمت ساعة يابنى . لقد احضروا لك ابنتك وهى هنا تنتظرك فى الحجرة المجاورة ، ولم أشأ ان يوقظك أحد

فضحكت قائلا :

ـ آه ! ابنتى ؟ ليأتونى بابنتى !

ماري ابنتي

انها؛نضرة وردية اللون ذات عينين كبيرتين ، انها لجميلة حقا !

لقد البسوها ثوبا يلائمها تماما

اخذتها ورفعتها بين ذراعى ، ثم اجلستها على ركبتى وقبلت شعرها

وساءلت نفسى : ترى لماذا لم تحضر معها أمها ؟ الآن امهـا مريضة ، وكذلك جدتها ؟ حسنا !

كانت تنظر الى فى دهشة باذية ، بينما اخذت اداعبها ، واحضنها ، والتهمها بقبلاتى وهى تتركنى افعل كل ذلك، غير انها كانت بين لحظة وأخرى تلقى نظرة حائرة على خادمتها، التى كانت تبكى فى ركن الغرفة

واستطعت اخيرا ان اتكلم فقلت لها :

ــ « مارى ! » ياصغيرتى « مارى ! »

وكنت فى تلك اللحظة اضمها فى عنف فوق صدرى المنتفخ بالدموع الملتهبة ، فصاحت صيحة صغيرة وقالت لى :

ــ آه ! انك تؤلمنى يا سيدى !

« سيدى ؟ ! » ها هو ذا عام تقريبا قد انقضى لم ترنى

خلاله هذه الطفلة المسكين ! لقد نسيتنى ، نسيت وجهى وكلامى ولهجتى ، ثم . . . من ذا الذى يستطيع ان يعرفنى وانا بهذه اللحية ، وفى هذه الثياب ، وفى مثل هذا الشحوب ؟ آه ! اهكذا محيت سريعا من هذه الذاكرة ، وهى الذاكرة الوحيدة التى كنت أود ان اعيش فيها ! آه ! ابمثل هذه السرعة لم اعد ابا ؟ أنا الذى قضى على الا اسمع قط بعد الآن هذه الكلمة : كلمة « بابا » ! هذه الكلمة التى هى من لغة الاطفال ، والتى تبلغ من العذوبة حدا لا يمكن ان تبقى معه فى ذاكرة الرجال !

ومع ذلك ، فقد كنت لا اتمنى الا ان اسمع هذه الكلمة من هذا الفم مرة اخرى ، مرة واحدة فحسب . . . هذا هو كل ما كنت أريده فى مقابل الاربعين سنة التى سياخذونها من عمرى !

قلت لها وانا آخذ بيديها الصغيرتين فى يدى :

ــ اصغى الى يا « مارى » . . الا تعرفيننى ؟

فنظرت الى بعينيها الجميلتين ثم اجابت قائلة :

ــ آه ! حسنا . . اننى لا اعرفك !

فعدت اكرر القول :

ــ انظرى الى جيدا . . كيف لا تعرفين من انا ؟

فقالت لى :

ــ بلى ، بلى . . انك سيد

وا أسفاه ! هاهو ذا امرؤ لايحب من اعماق قلبه الا مخلوقا واحدا فى هذا العالم ، يحبه بكل جوارحه ، ويجده امامه ،

وينظر اليه ، ويراه ويحدثه ويرد عليه .. ولكن هذا المخلوق لا يعرفه ، انني لا أريد عزاء الا منها ، فهي الانسان الوحيد الذي لا يعرف أني في حاجة الى العزاء ، لانى اوشك ان اموت !

واستأنفت حديثي معها قائلا :

ــ الك اب يا « ماري ؟ »

ــ نعم يا سيدي

ــ حسنا ، واين هو ؟

فرفعت الى عينين واسعتين تطل منهما الدهشة وقالت :

ــ الا تعلم اذن ؟ لقد مات يا سيدي !

وما أن قالت هذا حتى تصلبت ذراعاى على ماري لهول ما سمعته فصرخت ، وكادت تسقط مني على الارض ! بينما كنت اقول لها :

ــ مات ! اتعرفين يا « ماري » ما معنى انه مات ؟

فاجابتني قائلة :

ــ نعم يا سيدي .. انه في الارض وفي السماء

ثم استطردت تقول من تلقاء نفسها : « انى أصلي من أجله صباحا ومساء وانا على ركبتي ماما »

فطبعت قبلة على جبينها وقلت لها :

ــ قولي لي صلاتك يا « ماري »

ــ لا استطيع يا سيدي . ان الصلاة شيء لا يقال بالنهار . تعال عندنا في البيت هذا المساء وانا اقولها لك

وكان هذا حسبي لكنني قاطعتها قائلا :

ــ « ماري » انا والدك !

ــ آه !

فعدت اقول :

ــ اتحبين ان اكون والدك ؟

فاشاحت الطفلة عني بوجهها ثم قالت :

ــ كلا .. لقد كان والدي اجمل منك كثيرا !

فاخذت اغرقها بقبلاتي ودموعي ، فحاولت ان تفلت من بين ذراعي ، وهي تصيح قائلة : « انك تؤلمني بلحيتك ! »

وعندئذ اجلستها ثانية على ركبتي وانا احرسها بعيني ثم سالتها قائلا :

ــ اتعرفين القراءة يا « ماري » ؟

ــ نعم ، اعرفها جيدا ، ان والدتي تجعلني اقرأ حروفا اكتبها بنفسي

فقلت لها وانا اريها ورقة كانت تمسك بها مجعدة في احدى يديها الصغيرتين :

ــ أريني كيف .. هيا اقرئي قليلا !

فهزت راسها الجميل وقالت :

ــ حسنا ! لست اعرف الا قراءة الحكايات

فعدت اقول لها :

ــ استمري في المحاولة .. اريني .. اقرئي

فنشرت الورقة واخذت تتهجى مشيرة باصابعها :

— ح . . ك . . حك . . م . . « حكم » (١)

فانتزعت الورقة من بين يديها ، فقد كان ما تقرؤه هو نص الحكم الصادر على بالاعدام ، وكانت خادمتها قد اشترت هذه الورقة بنصف مليم ، اما انا فقد كلفتنى غاليا !

ليست لدى كلمات استطيع بها ان اعبر عما كنت اقاسيه فى تلك اللحظـة ! كان عنفى قد روعها واخافها وكانت تبكى تقريبا . وفجاة قالت لى : « أعد الى ورقتى اذن لالعب بها ! عجبا ! »

فارجعت الطفلة الى الخادمة وانا اقول :

— خذيها من هنا !

ثم تهالكت على مقعدى مكتئبا يائســا شارد اللب ! يجب عليهم أن يحضروا الآن فلم أعد أتمسك بأى شىء اذ انقطع آخر وتر من أوتار قلبى ، وصرت مهيئا لما سيفعلونه بى على الفور !

ان القسيس رجل طيب القلب ، وكذلك الجندى الحارس ، واحسب أن كل واحـد منهما قد ذرف دمعة حينما قلت للخادمة : « خذيها من هنا ! »

لقد قضى الامر الآن ، فيجب على ان اتصلب فى اعمــاق نفسى ، وان أفكر بثبات فى الجلاد ، وفى العربة ، والجنود ، والجمهور المحتشد على الجسر ، وفى المحتشدين على رصيف نهر السين ، وفى الذين يقفون أمام النوافذ ، وفيما سوف يعد خصيصا من أجلى فى تلك الساحة ، ساحة الاعدام المظلمة التى يمكن ان ترصف بما هوى من الرءوس

احسب انه لا تزال امامى ساعة كى آلف كل ذلك

ان كل هذا الشعب سوف يضحك ويصفق . وبين كل هؤلاء الرجال الاحرار الذين لا يعرفهم الجـلادون ، والذين يسرعون فى مرح لمشاهدة تنفيذ حكم الاعدام ، بين كل هذه الرءوس التى ستغطى الميدان ، هناك أكثر من راس كتب عليه ان يتبع راسى ان عاجلا او آجلا الى السلة الحمراء ، وهناك أكثر من شخص من هؤلاء الذين يأتون من أجلى سوف يأتون فى يوم من الايام من أجل أنفسهم !

فبالنسبة لهؤلاء الاشخاص المنحوسين ، هناك نقطة معينة فى ساحة الاعدام ، هى عبارة عن مكان مشئوم ومركز جاذبية ونصب منصوب ، وهم يحومون حوله ويحومون الى ان يترددوا فيه !

ابنتى الصغيرة « مارى ! » — لقد اعادوها لتلعب . . انها تنظر الى الجمهور من خلال نافذة العربة التى تقلها ولم تعد تفكر فى هذا « السيد ! »

قد يتاح لى كذلك بعض الوقت لاكتب لها بعض الصفحات حتى تقراها فى يوم من الايام ، وتبكى بعد خمسة عشر عاما بدلا من اليوم

(١) Arrêt « حكم » : كانت هذه اول كلمة مكتوبة على الورقة التى بين يديها ، وكانت صورة من حكم الاعدام الصادر عليه

نعم ، يجب ان تعرف « ماري » قصتي مني وان تعرف السبب في ان الاسم الذى اتركه لها يقطر دما !

قصتي

كلمة من الناشر : لم نجد الى الآن الورقات الخاصة بهذا الفصل من الكتاب . وقد يكون المحكوم عليه بالاعدام لم يجد متسعا من الوقت لكتابتها كما ستبينه الصفحات التالية ، وكان الوقت قد ازف عندما خطرت له هذه الفكرة

الى ساحة الاعدام

من غرفة بدار المحافظة ! انني هنا اذن ! لقد تمت الرحلة البغيضة وهاهي ذي ساحة الاعدام ، وهاهو ذا الشعب الرهيب يضج بالصراخ تحت نافذتي وينتظرني وهو يضحك !

وقد حاولت جهدي أن أتشجع او أستجمع قواي ولكني كنت احس دائما بان قلبي يخونني ، وقد خانني اكثر ، وكاد يكف عن الخفقان عندما رأيت هاتين الذراعين الحمراوين ، وفي نهايتهما هذا المثلث الاسود (١) ، تطالعني من فوق الرءوس وقد نصبت كلها لي بين مصباحين على رصيف النهر ، فطلبت ان اعترف اعترافا اخيرا ، فاحضروني الى هنا ، وذهبوا لاستدعاء أحد وكلاء النائب العام ، وهأنذا أنتظره وسوف أكسب بهذا بعض الوقت !

وهذا ما حدث :

دقت الساعة ثلاث دقات ، عندما جاءوا ليخطروني بأن الوقت قد حان ، فارتجفت كما لو كنت افكر في شيء آخر منذ ست ساعات او منذ ستة اسابيع ، بل منذ ستة اشهر ، لقد كان لهذا في نفسي وقع سيىء لم اكن أنتظره

(١) ذراعا المقصلة وسكينها

وساقونى أمامهم فاجتزت الدهاليز ونزلت السلالم ثم دفعونى بين نافذتين صغيرتين بالطابق الارضى فى غرفة ضيقة مظلمة سقفها به قباب ، ويصل اليها ضوء خافت من نور يوم معتم مطير • كان الضباب كثيفا ، وكان ثمة مقعد فى وسط الغرفة وأمرونى بالجلوس فجلست

وكان هناك ، عدا القسيس والحراس ، رجال يقفـــون الى جوار باب القاعة وبطول الجدران ، وكان هناك كذلك ثلاثة رجال آخرين

كان اولهم ــ وهو اطولهم قامة واكبرهم سنا ــ بدينا ذا وجه أحمر ، ويرتدى « ردنجوتا » وقبعة غيرمنتظمة الشكل لها زوايا ثلاث • لقد كان هو !

نعم ، كان هو الجلاد بعينه ، خادم المقصلة ، وكان الرجلان الآخران خادمين له شخصيا !

وما ان جلست حتى اقترب منى الرجلان الآخران من الخلف وكانهما قطان ، وفجاة ، أحسست ببرودة الصلب تسرى فى رأسى وصلصلة المقصات تدوى فى أذنى ، واخـــذ شـــعرى الذى كانوا يقصونه كيفما اتفق ، يتساقط خصلا على كتفى ، فكان الرجل البدين ذو القبعة المثلثة الاركان ينفضه فى رفق بيده الضخمة

ومن حولى كان يدور الحديث فى صوت هامس

وكانت تترامى الى أذنى من الخارج جلبة عظيمة كانها رعد يتدفق مع الهواء ، فحسبت فى أول الامر أنها صادرة من النهر ، ولـــكنى

ما لبثت ان سمعت ضحكات عالية ، فادركت أن تلك الجلبـــة كانت منبعثة من الجماهير

وكان هناك شاب يقف الى جوار النـــافذة وقد أخذ يكتب بالقلم فوق حافظة أوراقه ، فسأل أحد الحراس قائلا :

ــ ما هذا الذى يفعلونه الآن بالمحكوم عليه ؟

فأجابه الحارس بقوله :

ــ هذه زينة المحكوم عليه بالموت !

ففهمت عندئذ أن هذا سيظهر غدا فى الصحف

وفجاة ، خلع لى أحد خادمى الجلاد سترتى ، واخذ الآخر يدى اللتين كانتا تتدليان الى جانبى وجذبهما وراء ظهـرى ثم أحسست بالحبل وهو يلتف حول معصمى فى بطء • وفى نفس اللحظة كان الخادم الاول يفك ربطة عنقى ؛ لكن قميصى «الباتستا» وهو الخرقة الوحيدة التى تبقت لى مما كنت ارتديه فيمـــا مضى ــ جعله يتردد لحظـــة ثم شرع الرجل فى قص « ياقته »

فارتجفت لهذه الحيطة الرهيبة حينما مس المقص الصلب رقبتى ، وارتعد مرفقاى فى عنف ظاهر وند عنى أنين مكتوم ارتعشت له يدا « صبى » الجلاد

وقال لى الرجل :

ــ سامحنى يا سيدى ! هل آلمتك ؟

ان هؤلاء الجلادين ذوو شعور رقيق للغاية

وكان صراخ الجماهير يتزايد فى الخارج

وعرض على الرجل البدين ذو الوجه الاحمر ان اشم منديلا مشبعا بالخل ، فقلت له باعلى صوت استطعته : « شكرا ، هذا لا جدوى منه فانا اشعر بانى فى حالة جيدة »

وعندئذ انحنى أحدهم ، وقيد قدمى بحبل رفيع رقيق كان لا يتيح لي ان أخطو الا خطوات ضيقة للغاية ، ثم ربطوا هذا الحبل الاخير بحبل يدى

ثم ألقى الرجل البدين بالسترة على كتفى وربط كميها معا من اسفل ذقنى . كان كل ما كان ينبغى أن يتم هنا قد انتهى

وفى تلك اللحظة ، اقترب منى القسيس بصليبه وقال لى : « هيا يابنى »

فأمسك بى خادما الجلاد من تحت ابطى فنهضت ومشيت . كانت خطواتى خائرة منهارة ، كما لو كانت كل ساق منساقى لها ركبتان !

وفتح الباب الخارجى على مصراعيه فى تلك اللحظة ، فاندفع نحوى فجأة وأنا فى الظلام ، صياح الجماهير الغاضب مختلطا بالهواء البارد والضوء الابيض . ورأيت فجأة ودفعة واحدة من خلال المطر وعبر النافذةالصغيرة المعتمة آلافا مؤلفةمن الرءوس رءوس الشعب الذى تكدس بعضه الى جانب البعض فى غير نظام ، وهو يصيح من فوق سلم المحافظة الكبير . وكان هناك الى اليمين عند عتبة الباب تماما صف من فرسان البوليس على ظهور جيادهم التى لم يكن يبدو لى منها سوى صدورها وأقدامها الامامية من خلال الباب المنخفض ، وكانت هناك فى مواجهتى سرية من الجنود فى زى الميدان ، كما ظهرت الى اليسار مؤخرة عربة (كارو) كان يرتكز عليها سلم غليظ خشن ! فكان هذا كله لوحة كئيبة تتمشى تماما مع باب السجن !

وكنت قد استطعت ان احتفظ بشجاعتى حتى هذه اللحظةالرهيبة ،فخطوت ثلاث خطوات الى الامام ، وما كدتأبدو عند باب القاعة ، حتى علا صياح الجماهير قائلا : « هذا هو ! هذا هو ! هاهوذا يخرج اخيرا ! » وكان اقربهم الى مكانى يصفقون ، ومهما أحب الشعب ملكا فلن يحتفى به مثل هذه الحفاوة

وكانت العربة عربة (كارو) عادية يجرها جواد هزيل وكان سائقها يرتدى حلة زرقاء بها رسوم حمراء اللون شبيهة بثياب تجار الخضر حول سجن « بيستر »

وصعد الرجل البدين ذو القبعة المثلثة الاركان الى العربة أولا ، وكان الصبية المتعلقون بالسور الحديدى يصيحون لمرآه قائلين : « أهلا وسهلا بالسيد شمشون » ثم تبعه الى العربة احد خادميه ، فعاد الصبية يصيحون من جديد : « مرحى يا ماردى ! » وجلس الرجلان علىمقعد العربة الامامى

ثم حان دورى ، فصعدت الى العربة فى مظهر ثابت بعض الشيء . وفى تلك اللحظة قالت امراة كانت تقف الى جوار الجنود : « انه على مايرام ! »

ومنحنى هذا الثناء المروع شيئا من الشجاعة ، وجاءالقسيس

ليجلس الى جوارى وكانوا قد أجلسونى على المقعد الخلفى وظهرى الى جواد العربة ، فارتجف بدنى لهذه اللفتة الاخيرة ! انهم يبدون انسانية فى مثل هذه الامور

وأردت أن أنظر حول · كان امامى جنود ومن خلفى جنود ، ثم الجماهير ·· نعم ، جماهير ثم جماهير ثم جماهير : لقد كان هناك بحر من الرءوس يغمر الميدان !

وكانت كوكبة من فرسان البوليس فى انتظارى عند باب سور المحافظة الحديدى · وأصدر الضابط أوامره ، فتحركت العربة مع الموكب كما لو كان صياح الجماهير قد دفعها الى الامـام

واجتزنا الباب الحديدى ، وما كادت العربة تنعطف فى اتجاه قنطرة « أو شانج » حتى انفجرت الضوضاء فى الميدان ، من الارض الى أسطح المنازل ، ورددتها القناطر وأرصفة نهر « السين » فى دوى كأنه زلزال يهز الارض هزاً فى غير هوادة ولا رحمـة !

وفى تلك اللحظة ، انضم البوليس ، الذى كان ينتظرنى ، الى قوة الحراسة

وكانت آلاف الافواه تصيح معا ، تماما كما يحدث عندمرور الملك : اخلعوا قبعاتكم ! اخلعوا قبعاتكم ! » (١)

فضحكت أنا كذلك ضحكة كئيبة وقلت للقسيس : « هم القبعات ·· وأنا الرأس ! » (٢)

---

(١) لتحية الذاهب الى الموت عندمروره
(٢) أى هم يخلعون قبعاتهم وانا سيخلع راسى !

واخذ الموكب يسير خطوة خطوة . وكان رصيف الزهور تنبعث منه روائح زكية ، وكاناليوم يوم السـوق ، فتركت بائعات الزهور زهورهن من أجلى أنا

وهناك فى مواجهتنا ، قبل البرج المربع الجاثم فى ركن دار المحـافظة بقليل ، حانات كان الطابق الارضى منها يعج بالمتفرجين الذين ينعمون بأماكنهم الجميلة ، وكان أكثرهم من النساء ! لابد أن يكون هذا اليوم يوما طيبا بالنسبة لاصحاب الحانات ! فقد كانوا يؤجرون المناضد والمقاعد والمنصات والعربات (الكارو) · وكان كل شىء مزدحما بالمتفرجين ، وكان بائعو الدماء البشرية يصيحون بملء أفواههم قائلين : « من ذا الذى يريد مكانا ؟ »

وتملكنى السخط على هذا الشعب ، ووددت لو أصرخ فى الناس قائلا : « من منكم يريد مكانى ؟ »

ومع ذلك فقد أخذت العربة تتقدم ، وفى كل خطوة كانت تخطوها كان الجمهور ينفض من ورائها وكنت أرى بعينى الشاردتين أفواجا من الناس ، وهى تسارع الى التجمع فى مواضع أخرى أبعد الى الامام فى الطريق الذى يمضى فيه موكبى

وحينما بدأنا نمر فوق قنطرة « أوشانج » ألقيت بطريق الصدفة نظرة ذات اليمين الى الوراء ، فاستقرت عيناى عند رصيف نهر السين من الضفة المقابلة على برج أسود منعزل قائم منوراء أسطح المنازل ، وكان هذا البرج مزدانا بالنقوش،

وكنت ارى فى قمته تمثالين لوحشين من الحجر فى جلسة جانبية . ولست أدرى ماذا دفعنى الى سؤال القسيس عن أمر هذا البرج

فأجابنى الجلاد بقوله : « انه القديس جاك لابوشيرى »

ولست ادرى كيف كان لايفوتنى شيء مما كان يدورمن حولى رغم الضباب ورغم المطر الدقيق الابيض الذى كان يملأ الهواء وكانه خيوط نسيج العنكبوت ، وكانت كل واحدة من هذه التفاصيل تضيف إلى نفسى عذابا فوق عذاب • ولست أجد من الكلمات ما أستطيع به أن أعبر عما أشعر به من انفعالات

وفى نحو منتصف قنطرة «أوشانج» العريضة جدا والمزدحمة للغاية ، والتى كنا نسير فوقها فى صعوبة بالغة ، تملكنى رعب عظيم وخشيت ان أغيب عن الوعى • ياله من غرور أخير ! فحرصت عندئذ على ان اعمل على تشريد ذهنى حتى اصير كالأعمى الاصم فلا ارى شيئا ولااسمع شيئا عدا القسيس الذى كنت إسمع كلماته فى جهد جهيد تتخللها ضجة الشعب

فتناولت الصليب وقبلته ثم قلت : « رحماك يا الهى ! » وحاولت أن أفنى نفسى فى هذه الفكرة ، ولكن كل « مطب » تضطرب فيه العربة الصلبة كان يهزنى هزا عنيفا ، ثم احسست فجأة ببرودة شديدة ، اذ كان المطر قد نفذ من ثيابى وغمر جلد رأسى من خلال شعرى الذى قصوه قصيراً

وسألنى القسيس قائلا :

ـ أترتجف من البرد يا بنى ؟

فأجبته بقولى :

ـ نعم

وكنت للاسف لا أرتجف من البرد وحده !

وعند ناصية القنطرة أبدى بعض النساء عطفهن على لانى شاب حديث السن • ثم مضينا قدما على طول الرصيف المشئوم ، فبدأت لا أرى شيئا ولا أسمع شيئا ! آه من كل هذه الاصوات وكل تلك الرءوس التى تطل من النوافذ والابواب وتحتشد أمام الحوانيت وفوق أعمدة النور ، آه من كل هؤلاء المتفرجين النهمين القساة ، هذا الجمهور الذى يعرفنى كله ولا اعرف شخصا واحدا منه ، هذا الطريق المرصوف والمسور بالوجوه البشرية !! أنى كنت ثملا مذهولا متبلد الذهن ! ان كل هذه الانظار التى تتطلع اليك شيء لا يمكن احتماله !

لقد كنت أترنح اذن فوق المقعد ولم أعد ألقى بالا الى شيء ، حتى ولا الى القسيس أو الصليب • وفى غمرة الضجيج الذى كان يحيط بى ، صرت لا أميز صيحات الشفقة من صيحات السرور ، أو أفرق بين الانات والضحكات ، ولا بين الاصوات والصخب • فكل ذلك كان ضجيجا يدوى فى رأسى كما يدوى الصدى فى آلة من نحاس !

وكانت عيناى تقرآن لافتات الحوانيت بطريقة آلية ، وتملكنى مرة فضول عجيب لان أدير راسى لانظر الى أى مكان كنت أسير • كان هذا تحديا آخيرا من العقل ، غير أن جسمى لم

يستجب لهذا ولبث عنقي مشلولا كأنه مات مقدما !

لقد لمحت فحسب ، عن يسارى من الجانب بعيدا عن النهر ، برج كنيسة « نوتردام » الذى اذا نظر اليه من هذا الموضع ، فانه يحجب البرج الآخر ، هذا البرج الذى كان العلم مرفوعا عليه ، وكان به جمع غفير كان المفروض أنه يرى موكبي في وضوح

وواصلت العربة المسير فأخذت تتقدم وتتقدم والحوانيت تمر ، واللافتات تتتابع مكتوبة او مرسومة او مطلية بالذهب وكان الجمهور يضحك ويضرب الوحل بالاقدام ، أما أنا فكنت أترك العنان لنفسى كما يترك الناس عنان انفسهم للاحلام

وفجأة ، انقطعت سلسلة الحوانيت التى كانت تشغل عينى عند ناصية ميدان وأصبح صياح الجماهير أشد قوة وعمقا وانتشارا ، وصار أكثر مرحـــا كذلك ، وتوقفت العربة عن المسير بغتة فكدت أنكفىء على وجهى فوق « أرضـــيتها » الخشبية ، فسندنى القسيس وهو يتمتم قائلا : «تشجع يابنى!»

وجاءوا عندئذ بسلم عند مؤخرة العربة فقدم الى القسيس ذراعه فنزلت وخطوت خطوة واحـــدة ثم التفت الى ما ورائى لاخطو بعدها خطوة أخرى ، ولكنى لم أستطع ، اذ كنت قد رأيت شيئا رهيبا بين عمودين من اعمدة النور فوق الرصيف

آه ! لقد كانت هى الحقيقة !

فتوقفت كما لو كنت قد ترنحت من أثر الصدمة ، ثم صحت

قائلا فى صوت مخنوق : « لدى اعتراف اخير أريد ان أفــضى به: » ولكنهم صعدوا بى الى هذا المكان

وطلبت أن يتركونى كى أدون ارادتى الاخيرة ، ففكوا وثاق يدى ، ولكن الحبل هنا الى جوارى على أهبة الاستعداد ، وبقيته ملفوفة على قدمى !

الرجاء الاخير

لقد حضر منذ لحظة أحد القضاة او مامور او رجل من رجال القضاء لست ادرى أيهم . فطلبت اليه العفو عنى وانا اضم يدى وازحف على ركبتى . فأجابنى الرجل قائلا وهو يبتسم ابتسامة مشئومة : « هل هذا هوكل ماتريد ان تقوله لى ؟ »

فعدت أكرر قولى : « العفو عنى ! العفو عنى ! أو خمس دقائق فحسب .. على سبيل الرحمة ! »

من يدرى؟ فقد يصل امرالعفو! ومن الشناعة حقاأن اموت هكذا وأنا فى مثل هذه السن ! وكثيرا ما رأينا أمر العفو يأتى فى اللحظة الاخيرة وعمن يعفون ياسيدى اذا هم لم يعفوا عنى؟

يالهذا الجلاد البغيض ! لقد دنا من القاضى ليقـــول له ان تنفيذ الحكم يجب أن يتم فى ساعة محددة ، وان هذه الساعة تقترب ، وانه كان مســـئولا ، وليقول له فوق هـــذا ان السماء كانت تمطر ، وان ذلك كان خليقا بأن يجعل المقصلة تصدأ !

فصحت قائلا : « آه ! دقيقة أخرى على سبيل الرحمـــة ! دقيقة واحدة أنتظر فيها وصول العفو ! والا فانى سوف أدافع عن نفسى ! سوف أعض ! »

فانصرف القاضى والجلاد ، وبقيت وحدى !

وحدى مع جنديين

اوه ! يا للشعب الرهيب بصياحه الذى يشبه عواء الضباع! من يدرى ما اذا كنت أفلت منه ؟ من يعلم ما اذا كنت أعتق ؟ او أن يصدر عفو عنى ؟ ... من المحال الا يصدر العفو عنى !

آه ! يا للتعساء ! يبدو لى أنهم يصعدون السلم ! ...

الساعة الان الرابعة !

مهزلة بمناسبة مأساة

بقلم ڤيكتور هيجو

الشخصيات

مدام دى بلانفال
الفارس
ارجاست
شاعر حزين
فيلسوف
سيد بدين
سيد نحيل
سيدات
خادم

المكان : فى الصالون

شاعر حزين يقرأ هذه الابيات من شعره :

وفى اليوم التالى ، كانت خطوات تعبر الغابة
وكان هناك كلب ينبح ويهيم على طول مجرى النهـر
ولما حضرت الفتاة وهى تبكى
وعادت لتجلس وقلبها مملوء بالهواجس
على البرج القديم جدا فى القصر العتيق
سمعت « ايزور » الحزينة انين الامواج
ولكنها لم تعد تسمع الربابة بعد ذلك
ربابة القصصى (الشاعر) اللطيف !

كل المستمعين — « برافو » ! .. لطيف ! .. مدهش !
(ويصفقون فى نفس الوقت)

مدام دى بلانفال — هناك فى نهاية هـذه القصـيدة شىء غامض لا يمكن تعريفه ، شىء يسيل الدمع من العيون

الشاعر الحزين — (فى تواضع) : ان الكارثة مقنعة ؟

الفارس — (وهو يهز راسـه) : ان كلمتى ربابة وعازف ربابة : رومانتيكيتان !

الشاعر الحزين — نعم ياسيدى ، ولكنها رومانتيكية معقولة، رومانتيكية بمعنى الكلمة — ماذا تريد اذن ؟ يجب علينا أن نتساهل بعض الشىء

— نتساهل .. نتساهل ! اننا بهذه الطريقة نفقد الذوق

الفنى .. اننى لاعطى بامتنان كل الاشعار الرومانتيكية فى مقابل هذا الرباعى :

فى بلاد « باند » و « سيتير »
اخطر « جانتيى برنار »
بأن فن الحب يجب فى يوم السبت
ان يتعشى عند فن الاعجاب

هذا هو الشعر بمعنى الكلمة ! فن الحب الذى يتناول عشاءه يوم السبت عند فن الاعجاب ! حسنا ، حسنا ! ولكنه اليوم عبارة عن ربابة وعازف ربابة . لم يعد ثمة شعر به تورية واستعارة .. آه ! لو كنت شاعرا لكتبت أشعارا مملوءة بالاستعارات .. ولكنى لست شاعرا .. انا .

الشاعر الحزين — ومع ذلك ، فالاشعار الحزينة والعاطفية ...

الفارس — اننا نريد ياسيدى اشعارا بها استعارة .. (ثم بصوت هامس الى مدام دى بلانفال) : ثم انه استعمل كلمة غير فرنسية !

شخص ما — (مخاطبا الشاعر الحزين) : لدى ملاحظة ياسيدى .. انك تقول : « القصر العتيق » ، فلماذا لا تقول « القصر القوطى ؟ »

الشاعر الحزين — ان كلمة « قوطى » لا تقال فى الاشعار

شخص ما — آه ! هذا امر مختلف

الشاعر الحزين — (متابعا حديثه) : افهمنى تماما ياسيد

.. يجب أن نحدد أهدافنا ، وانا لست من هؤلاء الذين يريدون اشاعة الفوضى والاضطراب فى الشعر الفرنسى والعودة به الى عصر مدرسة « رونسار » (١) ومدرسة « بريبوف » اننى رومانتيكى ولكنى معتدل ، والامر عندى تماما كالانفعالات ، فانا اؤيدها حلوة رقيقة ، وحزينة حالمة ، ولكنى لا اريد ابدا دما وبشاعة . يجب تغطية الكوارث ، وانى لاعرف أن هناك اناسا مجانين يشتط خيالهم ويهرف ، وهم .. عجبا ! هل قرأتن سيداتى الرواية الجديدة ؟

السيدات ـ اية رواية ؟

الشاعر الحزين ـ الرواية التى عنوانها : « آخر يوم » ..

سيد بدين ـ كفى ياسيدى ! فانا اعرف ما تريد ان تقول .. ان العنوان وحده يرهق أعصابى !

مدام دى بلانفال ـ وانا كذلك .. انه كتاب فظيع ، وهو عندى هنا

السيدات ـ ارينا اياه .. أرينا اياه !

(يمر الكتاب من يد الى اخرى)

شخص ما ـ (يقرأ) : آخر يوم فى حياة شخص ...

السيد البدين ـ رحماك ياسيدتى !

مدام دى بلانفال ـ حقا انه كتاب شنيع يسبب الكابوس ، ويجلب لقارئه المرض

سيدة ـ (بصوت منخفض) : يجب أن اقرأ هذا الكتاب

---

(١) شاعر رومانتيكى من شعراء القرن السادس عشر

السيد البدين ـ من واجبنا ان نعترف بان الاخلاق تتدهور من يوم الى يوم . يا الهى ! يالها من فكرة بشعة ! .. أوليس تحليل كل الآلام البدنية ، وكافة انواع العذاب النفسى التى يقاسيها رجل محكوم عليه بالاعدام يوم تنفيذ الحكم فيه ، واحدة بعد اخرى ، والتغلغل فيها ، والتنقيب عن جذورها وملابساتها .. او ليس هذا كله شيئا شنيعا ؟ أتفهمن سيداتى انه قد وجد بالفعل كاتب تبنى هذه الفكرة وان ثمة جمهورا يقرأ لهذا الكاتب ؟

الفارس ـ هذا فى الواقع عمل ينطوى على اكبر قدر من الوقاحة !

مدام دى بلانفال ـ ومن هو مؤلفه ؟

السيد البدين ـ لم يكن اسم المؤلف مكتوبا على الطبعة الاولى

الشاعر الحزين ـ انه هو بعينه الذى سبق له ان كتب روايتين اخريين .. أقسم بشرفى انى نسيت عنوانيهما ! ان الرواية الاولى تبدا فى المشرحة وتنتهى فى ساحة الاعدام ، وفى كل فصل من فصولها تجدون غولا يأكل طفلا

السيد البدين ـ وهل قرات هذا ياسيدى ؟

الشاعر الحزين ـ نعم ياسيدى ، وحوادث هذه الرواية تقع فى « ايسلاندة » ..

السيد البدين ـ فى ايسلاندة ؟ ان هذا لشىء مخيف !

الشاعر الحزين ـ لقد كتب عدا هذا أشعارا غنائية والوانا

عدة من القصائد لست أعرفها ، ولـــكن فيها الوحوش ذات الاجساد الزرقاء !

الفارس — (ضـــاحكا) : يا الهى ! لابد ان يكون هذا بيتا عتيقا من الشعر

الشاعر الحزين — لقد نشر كذلك دراما مسرحية — انهم يسمون هذا دراما — ولقد جاء بها هذا البيت الجميل من الشعر :

غدا ، الخامس والعشرون من يونيو سنة الف وستمائة وسبع وخمسين

شخص ما — ياله من بيت من الشعر !

الشاعر الحزين — ان هذا يمكننا كتابته بالارقام .. انظرن سيداتى :

غدا ٢٥ يونيو ١٦٥٧

(يضحك ويضحك معه الآخرون)

الفارس — لقد أصبح الشعر الآن شيئا « خاصا »

السيد البدين — آه ! ان هذا الرجل لا يعرف كيف يقرض الشعر فما هو اسمه ؟

الشاعر الحزين — انه اسم يصعب حفظه والنطق به ..وبه المقطع : « جو » .. شىء يشبه « فيزيجو » على ما اذكر ،وعلى كل حال فان فيه شيئا من « الاوستروجو » (١)

يضحك

---

(١) قبائل البربر التى غـزت الامبراطورية الرومانية . وواضح ان الشاعر الحزين يلمح هنا الى اسـم « فيكتور هيجو »

مدام دى بلانفال — انه رجل بغيض !

السيد البدين — بل رجل شنيع !

سيدة شابة — ان شخصا يعرفه قال لى ..

السيد البدين — اتعرفين شخصا يعرفه ؟

السيدة الشابة — نعم ، وهو يقول انه رجل حلو الطباع ، بسـيط ، يضحك وهو فى عزلتـه ، ويقضى ايامه فى اللعب مع ابنائه

الشاعر الحزين — ويقضى لياليه يحلم بمؤلفاته المظلمة .هذا شىء فريد ! اليكم بيتا من الشعر نظمته بطريقة طبيعية للغاية :

« ولياليه يقضيها فى الحلم فى مؤلفاته المظلمة »

وهو بيت مصقول حسن ، ولا تنقصه الا قافية بيت آخـر آه ! .. هاهى ذى :

« فى الليل الحالك »

السيد البدين — كنت تقولين اذن يا سـيدتى ان المؤلف المذكور له أبناء صغار .. ان هذا مستحيل ياسيدتى ، عندما يكتب المرء مثل هذا الكتاب ! ... اوه ! مثل هـذه الرواية المفزعة ...

شخص ما — ولكن ، لاى هدف كتب هذه الرواية ؟

الشاعر الحزين — انى لى ان أعرف ؟

فيلسوف — يبدو انه كتبها بقصد الاسهام فى الغاء عقوبة الاعدام .

السيد البدين — انى اقول لكم ان هذه الرواية شىء بشع !

الفارس ـ آه ! انى ارى ذلك . . انها اذن مبارزة مع الجلاد

الشاعر الحزين ـ الواقع انه يحقد على المقصلة كل الحقد

سيد نحيل ـ استطيع ان اتصور ذلك ، فهى خطب اذن ؟

ـ كلا على الاطلاق ان هناك صفحتين على الاكثر عن نص عقوبة الاعدام ، اما الباقى كله فهو عبارة عن مشاعر

الفيلسوف ـ هذا هو وجه الخطأ ، فالموضوع كان جديرا بالتامل . ان « الدراما » أو الرواية لاتبرهن على شىء ، ثم انى قرات الكتاب ، وهو كتاب ردىء

الشاعر الحزين ـ بل وكريه ! هل هذا فن ؟ انه قد تخطى الحدود وحطم الزجاج ! وهناك كذلك هذا المجرم . . آه لو كنت اعرفه ! ولكن . . كلا ! ماذا جنت يداه ؟ اننا لانعرف عن ذلك شيئا ، وليس لاحد الحق فى ان يثير اهتمامى بانسان لا أعرفه

السيد البدين ـ ليس من حق الكاتب ان يثير فى القارىء آلاما بدنية . اننى عندما اشاهد مسرحيات محزنة يحدث فيها قتل . . آه ! حسنا . . فذلك لا يؤثر فى نفسى ، ولكن هذه الرواية يقف لها شعر الرأس ، انها تجعل جسمك يرتجف بأسره ، وتجعلك تحلم أحلاما فظيعة . لقد لازمت الفراش يومين بعد ان قراتها

الفيلسوف ـ زد على ذلك انه كتاب بارد ومتكلف

الشاعر ـ اوه ! كتاب ! . . كتاب !

الفيلسوف ـ نعم ، وكما كنت تقول منذ لحظة ياسيدى ، انه كتاب لا يقوم على الفن الحقيقى ، الفن بمعنى الكلمة ! اننى

لا اعنى بامر افتراضى محض ، ولست ارى فى الرواية شخصية تتقمص شخصيتى . وفوق هذا ، فاسلوبه ليس بسيطا ولا واضحا ، انه ملىء بالكلمات العتيقة ، افليس هذا هو ماكنت تقوله ؟

الشاعر ـ بلا شك ، بلا شك ! يجب الا تكون هناك شخصيات

الفيلسوف ـ ان الشخص المحكوم عليه لا يثير الاهتمام

الشاعر ـ وكيف يمكن ان يثير اهتمام القارىء ؟ انه ارتكب جرما ولا يشعر بندم ! لو اننى كنت المؤلف لفعلت عكس ذلك تماما ، لكنت قصصت قصة شخص المحكوم عليه ، فقلت انه مولود من ابوين شريفين وتلقى تربية طيبة . وبعد هذا يأتى الحب ، والغيرة ، وجريمة لاتكون جريمة . . ثم يأتى دور الندم . نعم ، كثير من الندم . ولكن القوانين التى وضعها الانسان لا ترحم . فيجب اذن ان يموت . وهنا ، كنت اتحدث عن موضوعى الذى اعالجه : عقوبة الاعدام

مدام دى بلانفال ـ آه ! آه !

الفيلسوف ـ عفوا ! ان الكتاب كما يفهمه السيد لا يبرهن على شىء ، فالخاص لايكون حكما للعام

الشاعر ـ حسنا ! هناك ماهو افضل . لماذا لم يتخير المؤلف بطلا لروايته مثلا ، شخصية كشخصية مالزرب ، مالزرب الفاضل ؟ آخر يوم فى حياته وعذابه قبل اعدامه ؟ آه ! انه كان خليقا عندئذ بأن يكون منظرا جميلا نبيلا ! ولكنت بكيت

وارتجفت من الانفعال ورغبت فى الصعود معه الى المقصلة !

الفيلسوف ــ اما انا فلا !

الفارس ــ ولا انا . الواقع ان السيد « مالزرب » الذى تتحدث عنه كان ثائرا

الفيلسوف ــ ان شنق « مالزرب » لايبرهن على شىء ضد عقوبة الاعدام بوجه عام

السيد البدين ــ عقوبة الاعدام ! ماجدوى الاهتمام بهذا الامر ؟ وفيم تعنيكم عقوبة الاعدام ؟ لابد ان يكون هذا الكاتب من وضاعة الاصل بحيث ياتى ليثير فى انفسنا بكتابه هذا كابوسا بشان هذا الموضوع !

مدام دى بلانفال ــ ان الذين وضعوا القوانين لم يكونوا اطفالا

الفيلسوف ــ آه ! ومع ذلك ، فعندما تعرض الامور فى صراحة . . .

السيد النحيل ــ آه ! هذا هو ما ينقص الكتاب تماما : الحقيقة والصراحة

ماذا تريدون ان يعرفه شاعر عن مثل هذه الامور ؟ يجب ان يكون المرء على الاقل وكيلا للنائب العام . عجبا ! انى قرات فى نص ذكرته احدى الصحف عن هذا الكتاب ان المحكوم عليه لايقول شيئا عندما يقرءون عليه نص الحكم . حسنا ! أما انا فقد رأيت شخصا محكوما عليه بالاعدام وهو يصيح بقوة فى تلك اللحظة قائلا :

« هل ترون . . . ؟ »

الفيلسوف ــ هل تاذن . . . ؟

السيد النحيل ــ عجبا ايها السادة ! ان المقصلة وساحة الاعدام ذوق فاسد ، والدليل على هذا انه كتاب يفسد الذوق ، ويجعل المرء عاجزا عن ان يشعر بانفعالات نقية طازجة وساذجة ! متى ينهض اذن اولئك الذين يدافعون عن الادب السليم ؟ اننى أود أن أكون عضوا فى الاكاديمية الفرنسية وقد يعطينى هذا الحق مرافعاتى كوكيل للنيابة . هذه هى حقيقة الامر ياسيد « ارجاست » ؛ فما رايك فى كتاب « آخر يوم فى حياة محكوم عليه بالاعدام ؟ »

ارجاست ــ الحق ياسيدى اننى لم اقرا هذا الكتاب ولن أقراه . لقد كنت اتعشى بالامس عند « مدام دى سينانج » ، وتحدثت الماركيزة « دى موريفال » بشانه مع الدوق « دى ملكور » . ويقال ان هناك بعض شخصيات ضد رجال القضاء ، وخاصة ضد الرئيس « داليمون » ، وكان الاب « دى فلوريكور » ساخطا كذلك ، ويبدو ان فى الكتاب فصلا يعارض فيه الدين بعض المعارضة وآخر ضد الملكية . آه لو كنت وكيلا للنائب العام !

الفارس ــ حسنا ! وكيلا للنائب العام ! وماذا عن الدستور ؟ وعن حرية الصحافة ؟ ومع ذلك فسوف تقرونني على ان شاعرا يريد الغاء عقوبة الاعدام امر شنيع . آه ! فلو ان انسانا سولت له نفسه فى العهد البائد ان ينشر رواية ضد تعذيب

المتهمين . . . ! ولكنهم اصبحوا يستطيعون كتابة كل شيء منذ سقوط الباستيل ! ان الكتب تحدث ضررا بليغا

السيد البدين ـ بليغا ! لقد كنا نعيش فى هدوء ولا نفكر فى شيء. كان يقطع فى فرنسا راس من حين لآخر هنا او هناك او راسان على الاكثر فى كل اسبوع ، غير ان ذلك كله كان يتم فى هدوء وبلا فضائح . كانوا لايقولون شيئا ، ولم يكن احد يفكر فى الامر على الاطلاق ! وهذا كتاب .. كتاب يحدث لك صداعا اليما !

السيد النحيل ـ علينا ان نجد الوسيلة التى تجعل المحلفين يحكمون بالاعدام بعد قراءة هذا الكتاب

ارجاست ـ انه يربك الضمائر

مدام دى بلانفال ـ آه ! الكتب ! الكتب ! من كان يصدق ذلك عن رواية ؟

الشاعر ـ ليس ثمة شك فى ان الكتب كثيرا ما تكون سما لقلب النظام الاجتماعى

السيد النحيل ـ دون ان نأخذ فى حسابنا اللغة التى يحدث فيها السادة « الرومانتيك » ثورة كذلك

الشاعر ـ علينا ان نميز ايها السادة ، فثمة « رومانتيك » و « رومانتيك »

السيد النحيل ـ الذوق الفاسد ! الذوق الفاسد !

ارجاست ـ انك لعلى حق . الذوق الفاسد !

السيد النحيل ـ ليس ثمة مايرد به على ذلك

الفيلسوف ـ (وهو يتكيء على مقعد سيدة) : انهم يقولون هناك اشياء لم تعد تقال حتى فى شارع موفتار

ارجاست ـ آه ! ياله من كتاب بغيض !

مدام دى برفال ـ اوه ! لا تلقوا به فى النار فهناك من تمتدحه

الفارس ـ حدثينى عن زماننا الماضى . لشد ما فسد كل شيء منذ ذلك الحين : الذوق ، والاخلاق ! هل تذكرين زماننا يا « مدام دى بلانفال » ؟

مدام دى بلانفال ـ كلا ياسيدى . لست اذكره ابدا

الفارس ـ لقد كنا نحن الشعب اكثر لطفا واكثر مرحا وخفة روح ، وكانت الحفلات الجميلة تقام دائما ، وكانت تقرأ الاشعار الجميلة . كان ذلك ساحرا للغاية . اهناك ماهو اروع من الشعر الذى كتبه السيد « دى لاهارب » عن الحفل الراقص المظيم الذى اقامته مدام « لامارشال دومايى » فى عام ١٧٠٠ وهو العام الذى أعدم فيه « داميان » ؟

السيد البدين ـ (متنهدا) : ياله من زمن سعيد ! والآن صارت الاخلاق مروعة ، وكذلك الكتب . هذا البيت من الشعر الذى قاله بوالو (١)

« ان سقوط الفنون يتبع تدهور الاخلاق »

---

(١) شاعر فرنسي من شعراء القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (١٦٣٦ - ١٧١١م)

الفيلسوف ـ (فى صوت منخفض موجها الحديث الى الشاعر) :

هل هناك عشاء فى هذا البيت ؟

الشاعر الحزين ـ نعم ، بعد قليل

السيد النحيل ـ والآن هم يريدون الغاء عقوبة الاعدام ، ويكتبون لهذا الغرض روايات قاسية فاسدة الذوق ولا اخلاق فيها مثل « آخر يوم فى حياة محكوم عليه بالاعدام » وغيرها مما لا اعرفه !

السيد البدين ـ عجبا ياعزيزى ! لنكف عن الكلام عن هذا الكتاب الشنيع . وبما اننا قد تقابلنا ، فقل لى ماذا ستفعل فى امر ذلك الرجل الذى رفضنا طلب استئنافه للحكم الصادر عليه منذ ثلاثة اسابيع ؟

السيد النحيل ـ آه ! قليلا من الصبر ! انا هنا فى عطلة ودعنى التقط انفاسى . وسوف ارى ذلك بعد عودتى الى العمل، ومع ذلك فان تأخرت كثيرا فسوف اكتب الى من يقوم بعملى

خادم ـ (يدخل) : سيدتى : ان العشاء قد اعد !

رقم الإيداع
٢٠٠٢ / ٤٤٨٧
I- S - B - N
977- 07- 0827-5